ملحق الكتروني تصدره جريدة «العدالة» اليومية، يهتم بترويج الافكار والمفاهيم
لتحرير القدس واراضينا المحتلة، ومقاومة الصهيونية والهيمنة

بسم الله الرحمن الرحيم

((إنّ هذه امَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ))

((وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ * إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ * وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ * وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا.))

((وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً . ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا.))

ملحق العدالة

وحدة الساحات | أصالة الوعي | تكامل المسؤوليات

العدد 16 -الاحد 15 شباط 2026

ان ما يتم نشره في الملحق يمثل رأي الكاتب ولا يعبر بالضرورة عن رأي (العدالة)

رؤية

ارتأت هيئة تحرير جريدة «العدالة» إصدار ملحق دوري يتناول القضايا الفكرية ذات الأبعاد المعرفية والتأسيسية والتحليلية المعمقة. فهناك حقيقة واضحة وهي ان تطور الاعلام وسرعة انتشاره، وتعدد وسائله قد راكم مفاهيم تعتمد الكم على حساب النوع. وتعتمد التبسيط والتعابير الشعبوية وسعة النشر والترويج على حساب سلامة المفاهيم وصحة بناءاتها ودقة معلوماتها. ولاشك ان ذلك قد اثر ويؤثر في مختلف مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والحقوقية والوطنية. بل هو يؤثر على الحصانات الفردية والجماعية والمجتمعية. فيسهل على قوى الاستغلال والشر والاستعمار التلاعب والاختراق بمشاعر الناس وعواطفهم لتمرير مخططاتهم وتحقيق اهدافهم.

لقد كشف «طوفان الأقصى» حقيقة لم تكن خافية لكنها لم تظهر بالوضوح الذي ظهرت عليه بعد السابع من تشرين اول (اكتوبر) ٢٠٢٣. كشفت ان قضية فلسطين هي ليست قضية تحرير ارض سليبة عربية او إسلامية فحسب. بل هي قضية تحرير فكر وتاريخ وعلاقات ووعي على صعيد عالمي، وليس على صعيد محلي فقط. فالصهيونية والاستعمار والهيمنة والمعايير المزدوجة والاستغلال والليبرالية والجندرية والفصل العنصري والإبادة الجماعية وانتهاك حقوق الأفراد والشعوب كل مترابط. فهناك وعي مغرض سقيم يسعى الطغاة والمستغلين نشره وترويجه. وهناك وعي هادف سليم يسعى المخلصون ترسيخه وحمايته. ونحن سنبذل جهدنا لان نؤدي ولو بمساهمة بسيطة في خدمة الوعي الجاد والسليم بنقل الكثير من الكتابات والمقالات الواعية المفيدة التي ينتفع بها الجميع وليس جهة او بلد واحد. فوحدة الساحات وتعميق الوعي وتحمل المسؤليات لا تخص ساحة واحدة بل تخص البشرية كلها.

هيئة تحرير العدالة

فهرست

فلسطين ليس مجرد كارثة، بل إمتحان للضمير العالمي ٥
كلمة وزير الخارجية الايراني عباس عراقجي

٤ تحولات وجودية تهدد تل ابيب؟ ٩
عمر معربوني

إيران دولة نووية غير معلنة ١٣
ثيودور بوستول

إنتهت الحرب الكبرى، وتبقى المعارك والتسويات الصغرى ٢١
السيد عادل عبد المهدي

ست سنوات فقط، ويختفي كل ما تسميه «طبيعياً» ٣١
يوفال نوح هراري

نهاية أوهام النظام الدولي ٤١
رئيس وزراء كندا مارك كارني

ما أشبه اليوم بالبارحة
كيف أصبحت بريطانيا أكبر كارتل عالمي للمخدرات ٤٧
Cinematic History

ملحق
ملحق العدالة

ملحق الكتروني تصدره جريدة «العدالة» اليومية، يهتم بترويج الافكار والمفاهيم لتحرير القدس واراضينا المحتلة، ومقاومة الصهيونية والهيمنة

صاحب الامتياز: السيد عادل عبد المهدي

مدير التحرير: د.علي الشاطي

التصميم: العدالة

ALADALAEDITOR@YAHOO.COM

ALADALANEWS.NET

الوان المقالات:

- مكتوبة
- محكية
- مترجمة

لفتح المكتبة الرقمية، كتب مختارة (PDF) اضغط على الرابط الاتي.

https://aladalanews.net/adala-books/

كلمة وزير الخارجية الايراني عباس عراقجي

٧ شباط ٢٠٢٦

المصادر:

منتدى الجزيرة- الدوحة

فلسطين ليس مجرد كارثة، بل إمتحان للضمير العالمي

إفلات إسرائيل من المساءلة يعرض الأمن الإقليمي لمخاطر كبيرة

عباس عراقجي
وزير الخارجية الإيراني

بسم الله الرحمن الرحيم

سعادة الشيخ حمد بن ثامر آل ثاني،
أصحاب السعادة، الزملاء الكرام، الضيوف الأكارم،
السيدات والسادة،
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.
إنه لسعادة لي أن أتحدث أمام هذه النخبة الطيبة وأن نبحث القضايا المهمة لمنطقتنا، وعلى رأسها فلسطين.
دعوني أولًا أبدأ بتكرار القول إن منطقتنا مرت بآلام مستمرة وبكلفة إنسانية كبيرة.

فقضية فلسطين ليست قضية من بين القضايا، بل هي السؤال الذي يحدد معنى العدل في غرب آسيا وما وراء ذلك. إنها البوصلة الأخلاقية للمنطقة، وهي اختبار: هل للقانون الدولي معنى؟ وهل لقيم حقوق الإنسان قيمة؟ وهل الأعراف الدولية والقوانين موجودة لحماية الضعيف أم لتعزيز وتقوية الأقوياء؟

لقد نُظر إلى الأزمة الفلسطينية لفترة طويلة على أساس أنها نتيجة احتلال غير شرعي وإنكار لحقوق متأصلة ودائمة، وهي حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره.
واليوم علينا أن ندرك أن الأزمة قد تحركت وتجاوزت حدود الاحتلال وحده. فما نراه اليوم في غزة ليس فقط حربًا، وليس نزاعًا بين أطراف متكافئة، وليس حصيلة سيئة لترتيبات أمنية؛ بل هو تدمير متعمد للحياة المدنية بشكل مقصود، وهو حرب إبادة.

إن فظائع إسرائيل في المنطقة أثارت حفيظة الضمير العالمي والبشري، ومزقت العالم العربي، وأثارت مناصرة كثير من الشعوب وأتباع الأديان الذين ما زالوا يقرّون بأن التجويع ليس سلاحًا، وأن المستشفيات ليست ميادين قتال، وأن قتل العائلات ليس دفاعًا عن النفس.

فلسطين اليوم ليست مجرد كارثة، بل هي انعكاس لضمير العالم كله. لا تعكس فقط معاناة الفلسطينيين، لكنها تعكس الإخفاق الأخلاقي لكل أولئك الذين فشلوا في وضع حد لهذه الفظائع، بل اختاروا تطبيعها وتبريرها

القضية الفلسطينية لم تعد مجرد كارثة إنسانية، بل أصبحت منصة لمشروع توسعي يجري تحت ذرائع الأمن. وتداعياتها كثيرة ومهمة وخطيرة.

١- التداعيات أن الحصانة التي أُعطيت لإسرائيل والإفلات من العقاب أضرا بالنظام القضائي الدولي.

العالم يتحرك نحو ضفة لا يعود فيها القانون الدولي محل احترام. والأخطر هو إرساء سابقة مفادها أن بالإمكان قتل الأبرياء وتدمير البنى التحتية واستهداف الأفراد عبر الحدود، ومع ذلك تُوصف هذه الأفعال بأنها قانونية. وهذه ليست مشكلة فلسطينية بل مشكلة عالمية؛ إذ نرى العالم يُساق إلى مكان يُستبدل فيه القانون بالقوة.

٢- التداعيات إقليمية.

فما قامت به إسرائيل أدى إلى زعزعة استقرار المنطقة.

النظام الإسرائيلي يخترق الحدود وينتهك الحقوق ويقوم بأعمال إرهابية ويوسع عملياته في مسارح متعددة علنًا ومن دون عقاب. وإذا حُسمت قضية غزة بالطرد والاحتلال والتدمير فستكون الضفة الغربية التالية في هذا المسار لتحقيق ما يسمى مشروع إسرائيل الكبرى. وعندها لن يتهدد الفلسطينيون فقط، بل سيُقبل مستقبل تصبح فيه الحدود مؤقتة والسيادة مشروطة، ويُقرر الأمن بالقوة العسكرية لا بالقانون والدبلوماسية.

٣- النتيجة تتعلق ببنية المنطقة وهيكليتها؛

فالتوسع الإسرائيلي يتطلب إضعاف المنطقة اقتصاديًا وسياسيًا واجتماعيًا وعسكريًا، ليبقى النظام الإسرائيلي صاحب اليد العليا. تُمنح إسرائيل حرية تعزيز ترسانتها بما في ذلك أسلحة الدمار الشامل، بينما يُطلب من الدول الأخرى نزع قدراتها الدفاعية ويُعاقَب من يقوي دفاعاته. وهذا ليس منع انتشار ولا تحقيق أمن، بل فرض عدم تكافؤ وهي عقيدة هيمنة.

لذلك فالمسألة الفلسطينية ليست إنسانية فحسب بل استراتيجية، ولا تقتصر على غزة والضفة الغربية بل تشمل مستقبل المنطقة وقواعد النظام العالمي.

لا يكفي التعبير عن القلق أو إصدار البيانات، بل يجب تبني استراتيجية منسقة اقتصادية وسياسية وقانونية وعسكرية قائمة على احترام القانون الدولي والمسؤولية المشتركة:

أولًا: دعم الآليات القانونية الدولية.

ثانيًا: محاسبة الانتهاكات وفرض عقوبات، بما فيها حظر فوري للسلاح ووقف التعاون العسكري والتكنولوجي وفرض قيود على المسؤولين والتجارة

ثالثًا: أفق سياسي قائم على القانون، بإنهاء الاحتلال وإعادة الحقوق وإقامة دولة فلسطينية موحدة مستقلة وعاصمتها القدس الشريف.

رابعًا: معالجة الأزمة الإنسانية باعتبارها مسؤولية دولية عاجلة وعدم تطبيع العقاب الجماعي.

خامسًا: تعاون دول المنطقة لحماية سيادتها وردع العدوان، لأن أمن دولة لا يمكن أن يقوم على انعدام أمن دول أخرى.

وعلى العالم العربي والعالم الإسلامي ودول الجنوب العالمي بناء جبهة دبلوماسية موحدة عبر جامعة الدول العربية ومنظمة التعاون الإسلامي والمنظمات الإقليمية، تتجاوز المواقف الرمزية وترسل رسائل استراتيجية. الأمر لا يتعلق بالصدام بل بمنع إعادة صياغة المنطقة بالقوة.

هذه المنطقة لا يمكن الحفاظ على استقرارها بفرض لاعب واحد على الآخرين، فهذه العقيدة لم تؤدِّ إلى السلام بل إلى مزيد من النزاعات. الطريق إلى الاستقرار واضح: تحقيق العدالة لفلسطين، إنهاء الاحتلال ونظام الفصل العنصري، المحاسبة على الانتهاكات، وبناء نظام إقليمي قائم على التعاون والعدل والسلام.

إذا أراد العالم السلام فعليه أن يكف عن مكافأة العدوان، وإذا أراد الاستقرار فعليه وضع حد للتوسع، وإذا أراد فرض القانون الدولي فعليه تطبيقه بلا معايير مزدوجة. وإذا أرادت دول المنطقة سلامًا بعيدًا عن الحروب الدائمة فعليها أن تدرك أن فلسطين ليست قضية تضامن فحسب، بل حجر زاوية لا يمكن الاستغناء عنه لتحقيق الاستقرار الإقليمي.

قطعا سننتصر!

عمر معربوني

٢٠٢٦-٢-٦

٤ تحولات وجودية تهدد تل ابيب؟

(كاتب وباحث لبناني في الشؤون العسكرية
خريج الأكاديمية العسكرية السوفياتية)

يقول العلم العسكري إن القوة لا تعني النصر دائمًا، لكن ما يحدث اليوم في تل أبيب يتجاوز مجرد تراجع ميداني. نحن أمام أربعة تحولات وجودية تضرب الركائز التي قام عليها الكيان، من انكسار أسطورة الحسم إلى سقوط الحصانة الأخلاقية أمام العالم.

إذن كيف بدأ العدّ التنازلي لمرحلة التفوق المطلق؟

فنحن أمام مشهد تاريخي غير مسبوق بكل المقاييس الجيوسياسية.

نحن أمام جيش يمتلك أحدث ما توصلت إليه التكنولوجيا الحربية والذكاء الاصطناعي، لكنه رغم ذلك يفقد أهم ميزة استراتيجية، وهي التفوق الحاسم.

نحن أمام قوة كانت تسوّق لنفسها لعقود كضحية تاريخية، والآن يراها العالم في قفص الاتهام أمام أعلى الهيئات القانونية الدولية. الأهم من ذلك أن الحليف الاستراتيجي الذي كان يرى في هذا الكيان حارسًا لمصالح الغرب، وجد نفسه مضطرًا للتحول من دور الداعم إلى دور المحامي والمحارب لحماية حليفه من الانهيار.

سأحلل لكم بعمق التحولات الأربعة الكبرى التي تهاوت، وكيف ستعيد هذه الانكسارات رسم معالم المنطقة لعقود قادمة. إن ما سأستعرضه معكم اليوم ليس مجرد رصد لأزمات إخبارية، بل هو تشريح لما نسميه في العلوم السياسية التآكل البنيوي. نحن نتحدث عن تصدع في الركائز الأربعة التي قام عليها وجود الكيان. عندما تلتقي الهزيمة العسكرية في الميدان بتراجع الدور الوظيفي أمام المشغّل الغربي، وصولًا إلى فقدان الأمان الشخصي في أبسط صوره في الشوارع، فنحن هنا لا نتحدث عن أزمة حكومة، بل نتحدث عن بداية النهاية لمرحلة التفوق المطلق التي ظن البعض أنها لن تنتهي.

التحوّل الأول: فقدان التفوّق العسكري

التحول الأول هو فقدان التفوق العسكري رغم التدمير. فلطالما اعتمدت العقيدة القتالية الإسرائيلية منذ عهد ديفيد بن غوريون على مفاهيم مقدسة: الحسم السريع، الردع المسبق، ونقل المعركة إلى أرض العدو. لكن في غزة سقطت هذه المفاهيم تحت ركام البيوت. ورغم اتباع استراتيجية الأرض الممسوحة، وحجم التدمير الذي طال كل شبر بري، إلا أن الجيش لم يستطع حتى اللحظة تحقيق هدف عسكري استراتيجي واحد قابل للصرف سياسيًا. التفوق التكنولوجي اصطدم بحائط مسدود، وبات واضحًا أن كثافة النيران لا تعني بالضرورة السيطرة على الأرض.

أولًا: سقوط ثلاثية العقيدة. تأسست العقيدة القتالية على الإنذار المبكر، الردع، والحسم السريع. في المواجهة الحالية سقطت هذه الثلاثية جملة وتفصيلًا. نحن أمام أطول حرب في تاريخ هذا الكيان، ما يعني فشلًا ذريعًا في مفهوم الحسم. أما الردع فقد تآكل تمامًا ولم يعد يخيف فصائل تمتلك إرادة المواجهة، بينما غاب الإنذار في صدمة العبور الأولى التي لن يمحوها الزمن.

ثانيًا: التدمير ليس السيطرة. استخدمت إسرائيل استراتيجية الأرض المدمّرة، وهي في العلم العسكري تعكس عجز القوة. بمعنى أنه عندما ينتقل الجيش من الاستهداف الجراحي إلى التدمير الشامل العشوائي، فهو يعترف ضمنيًا بأنه يجهل مكان خصمه وتفاصيله عسكريًا. القوة ليست في القدرة على الهدم، بل في القدرة على إجبار الخصم على الاستسلام، وهو ما لم يحدث.

ثالثًا: صدمة التكنولوجيا أمام الوسائل غير النمطية. اصطدم الذكاء الاصطناعي والمنظومات السيبرانية المتطورة بجدار الإرادة والميدان الصامت. لقد أثبتت المعركة أن التفوق التقني لا يمكنه هزيمة مقاتل يعتمد عقيدة الصمود، ويعتمد أيضًا تكتيكات بدائية لكنها ذكية، تقوم على التخفي والاتصال المباشر بعيدًا عن أعين الرادارات.

رابعًا: غياب الأفق الاستراتيجي. الجيش يقاتل اليوم بنمط تكتيكي بلا استراتيجية. هو يربح معارك صغيرة في أزقة مدمّرة، لكنه يخسر الحرب الكبرى. لم يستطع استعادة المحتجزين بالقوة، ولم يستطع القضاء على هيكلية المقاومة. هذا العجز عن تحويل النيران إلى نتائج سياسية هو التعريف الأكاديمي للفشل العسكري المطلق.

التحوّل الثاني: تآكل السردية والمظلومية

التحول الثاني هو تآكل السردية والمظلومية. لسنوات طويلة كانت المظلومية التاريخية هي الدرع الأخلاقي والحصانة ضد أي انتقاد دولي. لكن اليوم أحدثت المشاهد الحية القادمة من غزة زلزالاً بكل ما تعنيه الكلمة في الوعي العالمي. هذا التعاطف الذي كان يُستمد من أحداث الحرب العالمية الثانية وما فعله هتلر بدأ يتلاشى أمام واقع الحاضر. العالم اليوم لم يعد يرى في إسرائيل الضحية الناجية، بل أصبح يراها من زاوية حقوقية وقانونية دولية كقوة قائمة بالاحتلال تمارس أبشع أنواع الارتكابات.

في هذا الفصل، أولًا: سقوط سلاح المظلومية. لطالما كانت أحداث المحرقة الذريعة والمبرر لكل تجاوز إسرائيلي، حيث استُخدمت هذه المسألة كعصا لإسكات أي صوت معارض في العالم. اليوم، وبسبب البث المباشر للمآسي في قطاع غزة، سقط هذا الدرع. العالم لم يعد يرى الناجي، بل أصبح يرى المسؤول عن كارثة إنسانية كبرى، يراها كثيرون كإبادة جماعية موصوفة بحق المدنيين.

ثانيًا: فخ الضحية والجلاد. وقعت «إسرائيل» في فخ التمثيل التاريخي العكسي. عندما تحاصر شعبًا كاملًا وتمنع عنه الماء والغذاء، تسقط طوعًا من مرتبة الضحية إلى مرتبة الجلاد، وهو أمر كان يعتبر من المحرمات السياسية في الغرب، لكنه اليوم أصبح حديث الشارع.

ثالثًا: خسارة الجيل القادم، جيل Z. الأخطر ليس تراجع تعاطف الساسة العجائز في واشنطن، بل تآكل السردية لدى الشباب في الغرب. هؤلاء الشباب لا تربطهم عاطفة بوقائع تاريخية قديمة، بل تربطهم شاشات هواتفهم وما تظهره من مجازر يومية. هكذا فقد الكيان القوة الناعمة التي كانت تضمن له دعمًا شعبيًا عابرًا للعالم.

رابعًا: المقارنة القاتلة. لأول مرة يجرؤ الشارع العالمي على عقد مقارنات بين ممارسات هذا الجيش وبين الأنظمة الشمولية القمعية. هذه المقارنة تعني أن قدسية المظلومية قد انتهت إلى غير رجعة، وأن إسرائيل التي عاشت خلف قضبان مظلوميتها حطمت هذه القضبان بيديها، واستُبدل التعاطف العالمي بكراهية لا يمكن ترميمها بسهولة.

التحوّل الثالث: تراجع الدور الوظيفي من الحامي إلى المحمي

التحول الثالث هو تراجع الدور الوظيفي من الحامي إلى المحمي. هنا نصل إلى التحول الجيوسياسي الأخطر. إسرائيل أُنشئت لتكون قاعدة متقدمة تحمي مصالح الغرب، لكن المشهد الآن انقلب كليًا. بدلًا من أن تحمي إسرائيل مصالح أمريكا، أصبحت هي من يحتاج إلى الأساطيل الأمريكية والجسور الجوية والدفاعات الصاروخية الغربية للبقاء.

أولًا: انكسار الردع بالوكالة. كان الغرب يعتمد على إسرائيل لتأديب أي قوة إقليمية دون تدخل مباشر. اليوم إسرائيل عاجزة عن حماية نفسها، وعاجزة عن حسم المعركة، ما كسر هذه الوظيفة.

ثانيًا: من أصل استراتيجي إلى عبء. الدور الوظيفي الذي كان مبنيًا على أنها ذخر استراتيجي، تحوّل اليوم إلى عبء. مع استنزاف القدرات والمخازن الأمريكية والغربية، واضطرار واشنطن لتحريك حاملات الطائرات لحمايتها، بدأ السؤال يُطرح في الغرف المغلقة: هل لا تزال إسرائيل تحمينا، أم أننا نحن من نستنزف مواردنا لحمايتها؟

ثالثًا: سؤال الجدوى. أخطر ما يواجه إسرائيل هو اكتشاف الغرب أن قاعدته المتقدمة قد تحولت إلى ما يشبه الثقب الأسود الذي يبتلع الدعم العسكري والسياسي دون مقابل استراتيجي. هنا ندخل مرحلة إعادة صياغة الدور، وفي الحد الأدنى تقليص قيمتها الجيوسياسية.

التحوّل الرابع: فقدان الأمان الوجودي وتعدّد الجبهات

التحــول الرابع والأخير هو فقدان الأمــان وتعدد الجبهات. الأمــن لم يعد مفقــودًا على الحدود فحســب، بل في قلب الشــوارع. تداخلت التهديدات من ســقوط المســيّرات والصواريــخ التــي تجــاوزت الدفاعات، مــع العمليات الفردية غير النمطية كأعمال الدهس وغيرها. هذا التردي خلق حالة من اللااستقرار الوجودي لدى المستوطن، حيث لم تعد القوة العسكرية قادرة على تأمين الفرد في حياته اليومية.

أولًا: تــلازم التهديد. الصــاروخ والنمط الفــردي معًا أجبرا المجتمع علــى العيش في حالة ذعر دائم. التهديد التكنولوجي مــن جهــة، والتهديد الذي لا يمكن التنبــؤ به من جهة أخرى، جعلا مفهوم الأمان مستحيلًا. فلا الملاجئ تحمي من إرادة فرد قرر المواجهة في الشارع، ولا الرادارات ترصد تحركاته.

ثانيًا: ســقوط نظرية الملاذ الآمن. وهو الأســاس الذي قامت عليه فكرة اســتجلاب المســتوطنين، أي توفير المكان الأكثر أمانًا في العالم. هذا المفهوم سقط نهائيًا. سقط العقد الاجتماعي بين السلطة والمستوطن. الأمن ليس مجرد غياب الحرب، بل هو الشــعور بالاســتقرار، وهو ما تفتقده إسرائيل اليوم جملةً وتفصيلًا.

ثالثًا: الهجرة العكســية. نتيجة العمليات الفردية التي شــكلت كابوسًا لأي جهاز أمني، لكونها بلا هيكلية تنظيمية، تحطمت أسطورة المنظومة التي تدّعي إحصاء الأنفاس. الفشل يبدأ من الجندي في الميدان وينتهي بالشــرطي في الشــارع. في العلم العســكري، الهزيمة النفسية تســبق الهزيمة المادية، وهذا ما سيسرّع وتيرة الرحيل العكسي بحثًا عن بقعة أكثر استقرارًا.

في الخاتمة، «إسرائيل» اليوم تواجه الحقيقة المرة: القوة العارية لا تصنع أمنًا، والتكنولوجيا لا تهزم الإرادة، ومن كان يحمي مصالح الآخرين بات اليوم يستجدي من يحميه.

ثيودور بوستول

٢٥-٧- ٢٠٢٥

المصادر

على منصة

Glenn Diesen

إيران دولة نووية غير معلنة

(«ثيودور بوستول»، الأستاذ الفخري في معهد ماساتشوستس MIT للتكنولوجيا، والخبير في الأسلحة النووية والصواريخ الباليستية والدفاع الصاروخي وحرب الغواصات. عمل البروفيسور بوستول أيضاً لدى الحكومة ووزارة الدفاع الأمريكية ـ البنتاغون. كان مستشاراً علمياً لرئيس العمليات البحرية الأمريكية، وعمل في مكتب الكونغرس لتقييم التكنولوجيا. اشتهر «بوستول» بانتقاداته العلمية الدقيقة لكفاءة انظمة الدفاع الصاروخي مثل القبة الحديدية الاسرائيلية).

هيئة التحرير

أنا شخص تقني في الأساس، وليس سياسيًا بالدرجة الأولى، لكن من الواضح أن أهم شيء هو الآثار السياسية، وبافتراض صحة التقييم التقني، وأعتقد أن تقييمي التقني صحيح، فأعتقد أنه من وجهة نظر جيوسياسية، يجب الآن اعتبار إيران دولة نووية غير معلنة. لم يعد لدينا أي قدرة على معرفة ما إذا كان الإيرانيون يأخذون اليورانيوم المخصب بنسبة ٦٠٪ الذي حصلوا عليه بالفعل ويحولونه إلى مواد صالحة لصنع الأسلحة. وعندما أقول مواد صالحة لصنع الأسلحة، فأنا لا أتحدث عن اليورانيوم المخصب بنسبة ٩٠٪. لقد أثبتوا بالفعل قدرتهم على إنتاج يورانيوم لصنع الأسلحة.

هل لدى ايران يورانيوم مخصب بنسبة ٨٣,٧٪؟

في أوائل عام ٢٠٢٣، رصدت الوكالة الدولية للطاقة الذرية جزيئات من اليورانيوم المخصب بنسبة ٨٣,٧٪. وأثبتوا أن نسبة التخصيب ٨٣,٧٪ كافية لصنع ١٠ قنابل ذرية من مخزونهم من اليورانيوم المخصب بنسبة ٦٠٪. لذا فهم لا يحتاجون إلى ٩٠٪ كما كان يعتقد الجميع. لقد أثبتوا ذلك داخليًا، ومن الواضح أنهم أثبتوا ذلك لأن الوكالة الدولية للطاقة الذرية رصدته. لذا، وبناءً على خبرتي كشخص تقني، أرى أن هذا المستوى من التخصيب كان تجربة. وعندما تمتلك تقنية تعتقد أنك تفهمها، ترغب في اختبارها. تريد التأكد من أنها تؤدي ما تتوقعه منها. وبالطبع، يُعدّ تخصيب اليورانيوم إلى ٨٣,٧٪ اختبارًا لقدرة جهاز الطرد المركزي. من المؤكد تقريبًا أنهم كانوا يعتقدون أنهم قادرون على فعل ذلك، لكنهم كانوا يتحققون فقط. وهذا دليل على تخصيب كافٍ لصنع قنبلة ذرية. وبكمية اليورانيوم التي خُصّصت إلى ٦٠٪، أي حوالي ٤٠٨ كيلوغرامات، فإن الدقة تعود إلى مراقبة الوكالة الدولية للطاقة الذرية. لديهم ٤٨ كيلوغرامًا من سداسي فلوريد اليورانيوم. سداسي فلوريد اليورانيوم غاز. هو صلب في درجة حرارة الغرفة، لكن إذا رفعت درجة حرارته قليلًا، يصبح غازًا. وعندما يكون غازًا، يمكنك استخدامه. يمكنك استخدام ما يُسمى بأنواع معينة من الأجهزة. في هذه الحالة أجهزة الطرد المركزي، لتخصيب سداسي فلوريد اليورانيوم بحيث يصبح معظمه من اليورانيوم ٢٣٥، وهو المستخدم في الأسلحة النووية، مقارنةً باليورانيوم ٢٣٨ غير القابل للاستخدام في الأسلحة الذرية. ولكن الخلاصة، من وجهة نظر تقنية، إذا كان لديك حوالي ٤٠٠ كيلوغرام من اليورانيوم المخصب بنسبة ٦٠٪، فلن يتطلب الأمر أي جهد تقريبًا للوصول إلى نسبة تخصيب ٩٠٪، أو في هذه الحالة ٨٣,٧٪. أي إنتاج عشر قنابل ذرية من هذه المواد.

فقد بنى الإيرانيون حوالي ١٣٠٠٠ جهاز طرد مركزي منذ أن توقفوا عن السماح للوكالة الدولية للطاقة الذرية بمراقبة منشأة الإنتاج الخاصة بهم. كانت الوكالة الدولية للطاقة الذرية تراقب ٤٨ كيلوغرامًا من اليورانيوم المخصب بنسبة ٦٠٪. هذه طريقة للتأكد من أنهم لم يخصبوه لإنتاج أسلحة نووية.

بالطبع، لقد طردوا الوكالة الدولية للطاقة الذرية، لذا لم يعد هناك مراقبة لتلك المواد. فالوكالة الدولية للطاقة الذرية لم تعد قادرة على مراقبة إنتاج أجهزة الطرد المركزي. الآن، إذا كان لديك ١٣٠٠٠ جهاز طرد مركزي، وأريد بناء ما يسمى بالتسلسل، فسأوضح لك بإيجاز ما يعنيه التسلسل. حسنًا، كما تعلمون، من خلال مراقبة الوكالة الدولية للطاقة الذرية، فإن الإيرانيين قد يجرّبون استخدام ١٧٤ جهاز طرد مركزي، ونحن نعرف بالضبط ما هو تكوينها. ويمكنه إنتاج ما يكفي من اليورانيوم المخصب بنسبة ٨٣,٧٪ لصنع قنبلة ذرية كل أربعة إلى خمسة أسابيع.

لذا، إذا افترضنا أن لديك ١١٣،٠٠٠ جهاز طرد مركزي قيد الإنتاج، ولا تملك رقابة عليها، فإذا تم تحويل واحد ونصف بالمئة من أجهزة الطرد المركزي قيد الإنتاج، وهو أمر حكيم بالنسبة للإيرانيين، فسيصبح لديهم بسهولة سلسلة واحدة من ١٧٤ جهاز طرد مركزي.

لذا، لن يكون هناك أي فرق يُذكر بالنسبة للإيرانيين في تحويل أجهزة الطرد المركزي اللازمة لبناء سلسلة واحدة قادرة على إنتاج سلاح نووي كل أربعة إلى خمسة أسابيع. فإذا كان لديهم ثلاث أو أربع سلاسل فسيصبح لديهم خلال بضعة أسابيع فقط قدرة لإنتاج سلاح نووي كل بضعة أسابيع، لأن القدرة تتزايد بشكل خطي. بعبارة أخرى، لقد وصلوا إلى مرحلة لا يُلزمون فيها بالإفصاح عن أي شيء. في الواقع، أعتقد أن استراتيجيتهم الأكثر منطقية من وجهة النظر الإيرانية هي الاستمرار على ما يفعلونه الآن. إنهم يجتمعون مع مفتشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية الفنيين. لا يريدون «جنكيز خان» يتحكم بهم. ويجب أن يكون كذلك في رأيي. ولأنه لم يكن شخصًا مستقلًا، لم يُظهر أي استقلالية. لقد تعاون مع دول لها مصالح خبيثة في إيران. ويبدو أن الموقف الإيراني في هذه المرحلة هو التزام الصمت حيال ما يفعلونه، وترك السؤال مفتوحًا حول ما إذا كانوا قد شرعوا في إنتاج أسلحة نووية أم لا.

١٧٤ جهاز طرد مركزي ستشغل مساحة ٦٠ متراً مكعباً

والسؤال الوحيد الذي يمكن لأي شخص متخصص تحليله هو: إذا كانوا قد فعلوا ذلك، فمن المؤكد أن لديهم القدرة على تحويل جزء صغير جدًا من أجهزة الطرد المركزي التي بنوها بالفعل إلى منشأة خارجية صغيرة للغاية. إحدى هذه السلاسل التي أتحدث عنها، والتي قد تضم ١٧٤ جهاز طرد مركزي، ستشغل مساحة ٦٠ مترًا مربعًا. بمعنى آخر، سيشغل مساحة بحجم شقة متواضعة في أوسلو. وكمية الطاقة اللازمة لتشغيل نظام «كاسكيت» هي بضع عشرات من الكيلوواط. يمكنك الحصول على هذه الطاقة من سيارة «تايوتا بريوس» تعمل بالبنزين. يقوم محرك البنزين بتشغيل مولد كهربائي يقوم بدوره بشحن البطاريات، أو تشغيل محرك كهربائي، وبذلك تحصل على ١٥٠ كيلوواط من الطاقة من محرك ومولد سيارة «تايوتا بريوس» معًا. لذا، إذا امتلكت إحدى هذه الوحدات، يمكنني تشغيل ثلاثة أو أربعة أو أكثر من أنظمة «كاسكيت» في مكان لا تتجاوز مساحته ٦٠ مترًا مربعًا. لو كان لديّ مساحة أرضية إضافية تتراوح بين ٦٠ و ٨٠ مترًا مربعًا، لتمكنت من أخذ مادة سداسي فلوريد اليورانيوم، وهي كما ذكرت غاز عند درجات حرارة أعلى من درجة حرارة الغرفة، تتحول إلى مسحوق أبيض صلب ويمكنني تحويلها إلى معدن اليورانيوم. وهذا لن يستغرق سوى عملية صغيرة. بمعنى آخر، يمكنني القيام بكل هذا في منشأة مساحتها ١٢٠ أو ١٥٠ مترًا مربعًا. ليس من الصعب إخفاء شيء كهذا. فهذه ليست منشأة ضخمة مثل «اصفهان» أو «نطنز». هذا منشأة صغيرة يمكن إخفاؤها في مبنى داخل مدينة أو تحت جبل، على عمق ٥٠٠ أو ١٠٠٠ متر. إنها ليست منشأة ضخمة يصعب بناؤها على عمق كبير تحت طبقة سميكة من التربة. لا أستطيع تحديد ما هو مطلوب، لكن يمكنني إخبارك بما هو ضروري. يجب أن تكون أصمًا وأبكمًا وأعمى تمامًا لكي لا تأخذ الإمكانات التي وصفتها لك للتو على محمل الجد. لذا، ليس لدينا أي فكرة عما إذا كانت إيران تمتلك مثل هذه المنشأة أم لا.

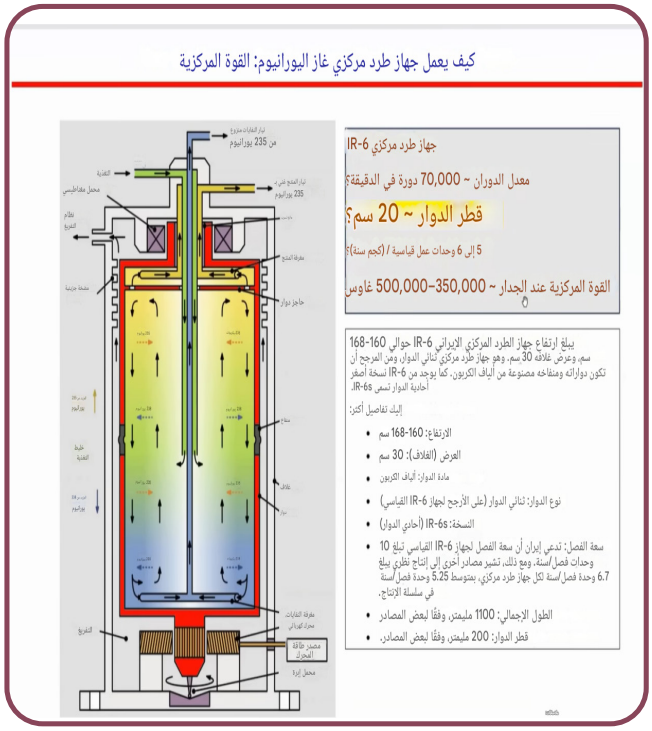

وأقول، لو كنت رئيس دولة قلقًا بشأن احتمال استخدام إيران أسلحة نووية ضدك، لكان عليك بالتأكيد اعتبارها دولة نووية غير معلنة، في نفس فئة «إسرائيل». وهذا له تداعيات جيوسياسية خطيرة للغاية. لكن هذه ليست قضية بسيطة. لأن العديد من الدول، ومثال على ذلك، باكستان. التي أعلنت نفسها دولة سلاح نووي. وقد أثبتت باكستان امتلاكها أسلحة نووية، بعد أسبوعين من تفجير الهند، على ما اعتقد. لم يقم الباكستانيون بتجميع ذلك السلاح في أسبوعين، بل كان جاهزًا.

إذن، السر الخفي حول تخصيب اليورانيوم، أو تخصيب الطاقة النووية، هو أن كمية قدرة التخصيب اللازمة لتشغيل برنامج حديث لإنتاج الطاقة النووية أكبر بكثير من كمية قدرة التخصيب اللازمة لبناء سلاح نووي.

في الحالة التي نتحدث عنها، فإن أجهزة الطرد المركزي هذه،تمتلك قدرة تخصيب أقل بحوالي ١٥٠ مرة من القدرة اللازمة لتشغيل محطة طاقة نووية واحدة بقدرة ألف ميغاواط. التي ستحتاج إلى ١٥٠,٠٠٠ وحدة مما يُسمى بالعملية الفصلية، بينما تمتلك الـ ١٧٤ جهازاً قدرة ألف وحدة فقط. إذن، السر الخفي هو أنه إذا كان لديك برنامج طاقة نووية، فستمتلك قدرة هائلة على تخصيب اليورانيوم بشكل أكبر وإنتاج أسلحة نووية. هذه معلومة تقنية بالغة الأهمية نظرًا لتداعياتها السياسية. الآن، وبعد أن فقدنا أي معلومات حول مصير اليورانيوم المخصب بنسبة ٦٠٪ في إيران، أصبحت إيران دولة نووية فعليًا، من وجهة نظري. ولو كنتُ مكان إسرائيل، لقلتُ إن هؤلاء دولة نووية. لا تستفزوهم بطريقة تعلمون أنها ستدفعهم لاستخدام الأسلحة النووية ضدكم، لأن ذلك سيؤدي حتماً إلى هجوم على تل أبيب أو حيفا.

يؤكد الايرانيون انهم لا يرغبون بامتلاك اسلحة نووية

يستطيع الايرانيون التركيز على موقفهم المعلن. بإمكانهم القول إننا لم نقرر بعد ما إذا كنا سننتج أسلحة نووية أم لا، بينما –حسب تصوري- هم قد بنوا أسلحة نووية بالفعل. في الواقع، لو كنتُ مستشارًا تقنيًا للقيادة في إيران، لقلتُ: لنبدأ ببناء هذه الأسلحة، حتى إذا تعرضنا لهجوم، نستطيع الرد في وقت قصير، سواء في غضون أيام أو أسابيع. بدلًا من إنتاجها في النهاية، نمتلكها جاهزة، ولدينا الأسلحة. لسنا بحاجة لاختبارها لأنها أسلحة بسيطة ذات تقنية منخفضة. لذا، لسنا بحاجة لاختبار هذه الأسلحة. يمكننا الاحتفاظ بها في قبو، ولا نعلن أننا دولة نووية.

نقول إننا قد نصبح دولة نووية بسرعة كبيرة إذا استُخدمت هذه الأسلحة ضدنا. إذا أجبرتمونا على ذلك. فقولوا إننا لسنا دولة معلنة كدولة نووية. نحن لا نعلن أنفسنا دولة نووية. وعليكم أن تلعبوا نفس اللعبة التي يلعبها الإسرائيليون. كما تعلمون، هذه هي السياسة التي سأوصي بها لإيران لو كنت مستشارًا سياسيًا/ تقنيًا للقيادة الإيرانية، لأنني سأقول إننا نحتاج حقًا إلى القدرة على الرد إذا استمر هؤلاء على هذا المنوال.

ولكن في الوقت نفسه، لا نريد استفزاز مصر وتركيا والسعودية. لذا، يمكننا الحصول على أفضل ما في العالمين تقريبًا، لأنه لا يمكن لأحد أن يعرف. لا توجد طريقة لأحد أن يعرف طالما استطعنا الحفاظ على السر. لذلك، يجب الحفاظ على سرية المعلومات بشكل كبير جدًا. ولكن كما تعلمون، مع سير الأمور، يمكنكم إبقاء هذه العملية بأكملها في عدد قليل جدًا من الأشخاص لأن المنشأة التي تحتاجونها صغيرة للغاية. فلماذا لا أفعل ذلك.

النقلة النوعية والكمية في عدد اجهزة الطرد المركزي

إذا نظرنا إلى الفترة المبكرة، حتى حوالي عام ٢٠١٥، سنجد أن عدد أجهزة الطرد المركزي التي كان يمتلكها الإيرانيون كان محدودًا للغاية، حيث بلغ ٥٠٠٠ جهاز، أو ما يزيد قليلاً عن ١٤٠٠ جهاز عن عدد أجهزة الطرد المركزي التي حددها الاتفاق النووي الشامل المشترك (خطة العمل الشاملة المشتركة) الذي تم الاتفاق عليه مع أوروبا والولايات المتحدة.

وقد حدّ هذا الاتفاق من عدد أجهزة الطرد المركزي التي كان من المفترض أن يمتلكها الإيرانيون. وكانت قدرة هذه الأجهزة على التخصيب متواضعة نسبيًا. وبالتالي، فقد تم تقييدها ضمن هذا النطاق، على الرغم من كل الانتقادات التي وُجهت إلى الاتفاق النووي من قِبل أشخاص،

على حد علمي، لم يكونوا على دراية بما يتحدثون عنه، لأن هذا نظام تقييدي للغاية. تذكر أننا لم نكن نراقب عدد أجهزة الطرد المركزي التي تمتلكها إيران فحسب، بل كنا

نراقب أيضًا المواد النووية التي تنتجها. لذا، كنا في وضع جيد للغاية. كان نظامًا مقيدًا إلى حد كبير. ثم بالطبع، في عام ٢٠١٩، انسحب دونالد ترامب من الاتفاق النووي، وبالطبع لم يحصل الإيرانيون إلا على القليل جدًا من فوائد الاتفاق، لأنهم كان من المفترض أن يحصلوا على تخفيف للعقوبات، وهو ما لم يحصلوا عليه تقريبًا. وهذه مشكلة أخرى في الدبلوماسية الغربية. لا تُكافأ أبدًا. تُعاقب فقط. تتوصل إلى اتفاق، وفجأة يتناول الاتفاق قضايا أخرى لم تكن جزءًا منه. هذه مشكلة حقيقية في السلوك الدبلوماسي للغرب، وخاصة الولايات المتحدة. وهكذا بدأنا نشهد انطلاق برنامج أجهزة الطرد المركزي في وقت ما من عام ٢٠١٩.

وفي عام ٢٠٢١ تقريبًا، صرّح الإيرانيون بأنه يُمكنكم مراقبة المواد التي نُنتجها، ولكن لا يُمكنكم مراقبة إنتاجنا لأجهزة الطرد المركزي. لذا، من الآن فصاعدًا، سنُنتج أجهزة الطرد المركزي ولن تتمكنوا من مراقبة خط إنتاجنا. خلال هذه الفترة، من فبراير ٢٠٢١ وحتى الآن، أنتج الإيرانيون أكثر من ١٣٠٠٠ جهاز طرد مركزي.

حسنًا، كم عدد هذه الأجهزة التي تم تحويلها لأغراض سرية؟ ليس لدينا أي وسيلة لمعرفة ذلك. قد تكون هناك أجزاء تم تحويلها، بما في ذلك أجهزة الطرد المركزي نفسها أو مكوناتها. من المستحيل ألا نتوقع رد فعل عنيف من الغرب، لأن الغرب لم يُكافئ الإيرانيين على أي امتثال قبل ذلك. حتى مع الانحناء للخلف. إذن، يمتلك الإيرانيون هذه الأجهزة الطاردة المركزية. وجهاز الطرد المركزي جهاز، له غلاف خارجي مفرغ من الهواء، يوفر حاوية مفرغة من الهواء، وداخل هذه الحاوية يوجد عنصر دوار. يبلغ قطر هذه الحاوية حوالي ٣٠ سم، أو قدم واحدة. وفي الداخل، يوجد ربما أسطوانة دوارة قطرها ٢٤ أو ٢٥ بوصة. تدور هذه الأسطوانة بسرعة هائلة تصل إلى ٧٠,٠٠٠ دورة في الدقيقة. إنها سرعة هائلة، تعطي فكرة عن مدى قوة الطرد المركزي عند جدار هذه الأسطوانة. تتراوح قوة الطرد المركزي بين ٣٥٠,٠٠٠ و٥٠٠,٠٠٠ ضعف قوة الجاذبية الأرضية. أي أن هذه القوة تعادل ٥٠٠,٠٠٠ ضعف قوة الجاذبية الأرضية المؤثرة عليك عند الجدار من خلال دوران الأسطوانة. لذا، لو كنت برغوثًا على الجدار، لكانت القوة الجانبية الناتجة عن وجودك على الجدار أثناء دوران الأسطوانة تساوي رطلًا واحدًا.

إذن، هذه قوة هائلة. هذا الجهاز يدور. تخيل مدى دقة تصنيع جدرانه. كل شيء متوازن على رأس يشبه الدبوس أثناء دورانه لأنه يستهلك طاقة منخفضة. لن أتطرق إلى التفاصيل، لكن يمكنك اعتباره وحدةً يُدخل إليها غاز سداسي فلوريد اليورانيوم، وهو مزيج من اليورانيوم-٢٣٥ واليورانيوم-٢٣٨، ويخرج منها «يورانيوم مخصب» و«يورانيوم منضب». ما عليك فعله هو أخذ جهاز الطرد المركزي هذا وبناء سلسلة أجهزة الطرد المركزي. والمفترض ان يكون عددها ١٧٤ جهازاً، والتي يجري الإيرانيون تجارب عليها. وكيفية عمل السلسلة، فكرة بسيطة للغاية. خذ جزءًا منها. أقوم بتغذية سداسي فلوريد اليورانيوم، وهو غاز. يخرج من كل جهاز طرد مركزي إما يورانيوم مخصب، أو يورانيوم مخصب قليلاً، أو يورانيوم مخصب قليلاً جداً، أو يورانيوم مستنفد قليلاً جداً. لدي مراحل لاستنفاد اليورانيوم. في هذه الحالة، دعونا ننظر إلى مرحلة اليورانيوم المستنفد بعد التغذية. أقوم بتغذية اليورانيوم المستنفد إلى مدخل صف من أجهزة الطرد المركزي أسفلي، وأسحب اليورانيوم المخصب من تيار اليورانيوم المستنفد وأعيده إلى التيار أعلاه. ثم أسحب اليورانيوم المستنفد وأحوله إلى يورانيوم مستنفد، وفي النهاية أتخلص منه كمخلفات. هذه مادة تحتوي في الغالب على يورانيوم ٢٣٥ مستنفد. في جزء التخصيب من سلسلة التفاعلات، تدخل التغذية ويخرج سداسي فلوريد اليورانيوم المخصب. أقوم بإدخال ذلك إلى مدخل المرحلة التالية، ثم أقوم بتخصيبه، وأقوم بإدخاله إلى

الكتل الحرجة للقنابل الذرية U235 وPu239 المجردة، والمنعكسة بالبريليوم، والمنعكسة باليورانيوم

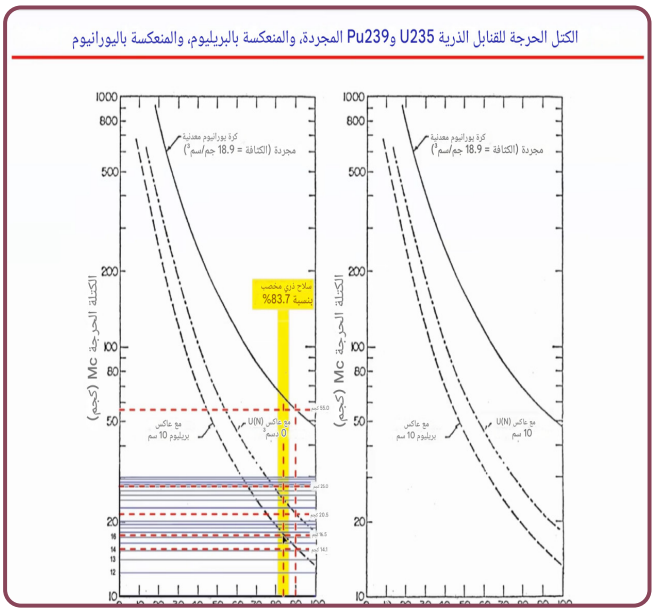

المرحلة التالية، وهكذا حتى أحصل على منتج مُخصب. في هذه الأثناء، تُعاد كل مرحلة من مراحل التخصيب هذه إلى المرحلة السابقة حيث يتم تخصيبها مرة أخرى. إذن، لدينا آلية التغذية الراجعة هذه حيث أقوم بالتخصيب والاستنزاف. وهذا يسمح لي باستخدام عدد كبير من أجهزة الطرد المركزي المتتالية بكفاءة عالية.

ومجموعة أجهزة طرد اليورانيوم هذه موضوعة في غرفة وفيها انابيب متصلة بها. كل أنبوب منها يُمثل مدخلاً أو مُغذيًا. أحد هذه الأنابيب يُخرج سداسي فلوريد اليورانيوم المُخصب، والآخر يُخرج سداسي فلوريد اليورانيوم المُستنفد. وبما أن هذه الأنابيب طويلة بما يكفي، يُمكنني دائمًا إعادة ترتيبها، ليس بالضرورة أن تكون مُرتبة في صفوف. يُمكنني ببساطة أخذها واستخدام الأنابيب لإعادة ترتيبها. كل ما عليّ فعله هو إعادة ترتيبها بأي شكل منطقي. وإذا أردت معرفة حجم مصفوفة ١٧٤ جهاز طرد مركزي، فالمسافة بينها حوالي قدم واحدة. هذه ١٧٤ جهاز طرد مركزي مرتبة لتقليل مساحة الأرضية التي تشغلها. أبعادها ٢٤ قدمًا × ٢٦ قدمًا، أي حوالي ٦٠٠ قدم مربع أو ٦٠ مترًا مربعًا، وهي مساحة شقة صغيرة موفرة للطاقة. وتستهلك هذه الأجهزة طاقة منخفضة جدًا، وحسب نوع جهاز الطرد المركزي وخصائص تصميمه. لذا، فهي لا تشغل مساحة كبيرة ولا تستهلك طاقة كبيرة. يمكنك استخدام سيارة «تايوتا بريوس»، وستحصل على الطاقة منها. بالطبع، عليك تهوية الغاز. فإذا كان لديك يورانيوم عالي التخصيب، فإن الخطوة التالية سهلة. خلاف ما قد يتبادر إلى ذهن معظم الناس، بأن الخطوة الأخيرة صعبة للغاية.

لنفترض أن لديّ ٣٢٠٠ كيلوغرام من اليورانيوم الطبيعي، أي ما يعادل ١٠/٧ من ١٪ من اليورانيوم-٢٣٥. وأريد يورانيومًا مخصبًا بنسبة ٩٠٪ من اليورانيوم-٢٣٥، لأنني سأستخدمه لصنع قنبلة. أحتاج إلى ٣٢٠٠ كيلوغرام من اليورانيوم الطبيعي تحتوي على ما يقارب ٢٥ كيلوغرامًا من اليورانيوم-٢٣٥ بنسبة ٩٠٪. ولكن بالطبع، يتوزع اليورانيوم-٢٣٥ في جميع أنحاء هذه المادة. حسنًا، أحتاج إلى حوالي ٣٥٠٠ وحدة من العمل الفصلي للوصول إلى ٣٪ أو ٣,٥٪ من اليورانيوم-٢٣٥ لمفاعل الطاقة الخاص بي. إذًا، ٣٥٠٠ وحدة من العمل الفصلي للحصول على حوالي ٦٠٠ كيلوغرام من اليورانيوم المخصب بنسبة ٣,٥٪. حسنًا، إذا أردت تشغيل مفاعل طاقة، فأنا بحاجة إلى حوالي ٢٧ طنًا من اليورانيوم المخصب بنسبة ١٢٪ سنويًا للحفاظ على تشغيله. لذا، أحتاج إلى حوالي ١٥٠,٠٠٠ وحدة عمل فصلية سنويًا للحفاظ على تشغيل مفاعل كهربائي بقدرة ١٠٠٠ ميغاواط. هذه هي السعة التي يجب أن أمتلكها إذا كان لدي برنامج طاقة نووية ينتج يورانيومًا مخصبًا بنسبة طفيفة لمفاعل الطاقة الخاص بي. ولكن إذا أردت تخصيب اليورانيوم بنسبة ٢٠٪، كما هو الحال في المفاعلات التجريبية التي استخدمها الإيرانيون لإنتاج نظائر خاصة، مثل النظائر الطبية، فسأحتاج إلى أقل من نصف كمية العمل الفصلي للوصول إلى نسبة تخصيب ٢٠٪. وما كان يفعله الإيرانيون هو أنهم كانوا يخصبون اليورانيوم إلى حوالي ٢٠٪ لفترة طويلة، ثم بدأوا فجأة في تخصيبه إلى ٦٠٪. الآن، كانوا يحتاجون فقط إلى ٣٨٠-٤٠٠ وحدة عمل فصلية للحصول على اليورانيوم المخصب بنسبة ١٢٪. تذكر، بدءًا من ٣٢٠٠ كيلوغرام من اليورانيوم المخصب بنسبة ٢٠٪، ننتقل من ١١٢ كيلوغرامًا إلى حوالي ٣٧,١٢ كيلوغرامًا من اليورانيوم المخصب بنسبة ٦٠٪. لدينا هنا وحدة وزنها ٣٧,١٢ كيلوغرامًا من اليورانيوم المخصب. لنفترض أنها ٤٠ كيلوغرامًا من اليورانيوم المخصب، ولدينا ٤٠٠ كيلوغرام من هذه المادة التي لم نعد نعرف مكانها. يمكن تخصيب كل عبوة وزنها ٤٠ كيلوغرامًا من اليورانيوم المخصب بنسبة ٦٠٪ للحصول على ٢٥ كيلوغرامًا من اليورانيوم المخصب بنسبة ٩٠٪. وقد اتضح أنه في أواخر عام ٢٠٢٣، أو أوائل عام ٢٠٢٣، أفادت وكالة الطاقة الذرية أنها عثرت على جزيئات يورانيوم مخصبة بنسبة ٨٣,٧٪ في منشأة فوردو.

أنت بحاجة إلى ١٢٠ وحدة عمل منفصلة للانتقال من ٣٧,١٢ كجم من اليورانيوم المخصب بنسبة ٦٠٪ إلى ٩٠٪، وهو ما يكفي لصنع سلاح نووي. لكنك تحتاج فقط إلى ٩٢ وحدة عمل منفصلة للانتقال إلى ٢٧ كجم، لوجود المزيد من اليورانيوم ٢٣٨ بنسبة ٨٣,٧٪.

ولكن إذا نظرنا الآن إلى الكتلة الحرجة من اليورانيوم بنسبة ٩٠٪ في اليورانيوم النقي، باستخدام ما يُسمى عاكس البوريليوم بطول ١٢ سم. سهل التجميع، يزن ما يزيد قليلاً عن ١٤ كيلوغرامًا. لذا، ستحتاج إلى قطر ٨ سنتيمترات تقريبًا، أو ١٠ سنتيمترات. إذا كان لديك ٨٣,٧٪ من اليورانيوم، فلا يزال بإمكانك الحصول على ١٦,٥ كيلوغرامًا من معدن اليورانيوم، وهو ما يكفي لصنع قنبلة ذرية. إذن، نسبة ٨٣,٧٪ تكفي لصنع ١٠ قنابل ذرية، كل عبوة تحتوي على ٣٧,٥ كيلوغرامًا من سداسي فلوريد اليورانيوم بنسبة ٦٠٪. هذا هو العدد المناسب تقريبًا إذا كنت ترغب في صنع قنابل ذرية.

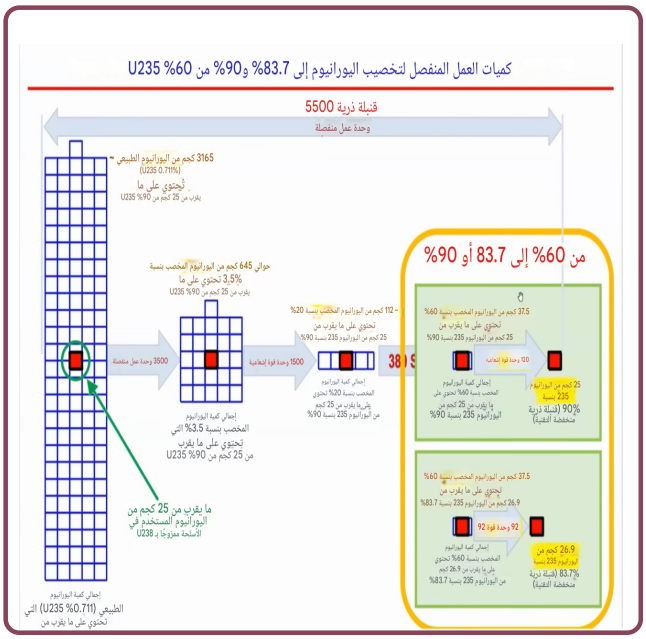

شكل القنبلة الذرية:

لها قلب معدني من اليورانيوم، يزن حوالي ١٤ كيلوغرامًا من اليورانيوم-٢٣٥، محاط بعاكس من البوريليوم. البوريليوم مادة خفيفة جدًا. يُستخدم هذا النظام عندما تتكاثر النيوترونات في اليورانيوم أثناء الانفجار النووي، حيث يتسرب عدد كبير منها إلى الغلاف الجوي. لذا، يتم وضع عاكس من البوريليوم حول المادة لعكس هذه النيوترونات وإعادتها إليها. وبالتالي، نحصل على كتلة حرجة أصغر بكثير. وإلا، لكانت الكتلة الحرجة الأساسية قد تجاوزت ٥٠ كيلوغرامًا. لذا، بدلًا من ذلك، نستخدم البوريليوم لتغليف المادة، وهي مادة معروفة بخصائصها. لدينا حوالي ٤٠ كيلوغرامًا من المواد النووية، منها ٢٨ كيلوغرامًا من اليورانيوم، و ٢٨ كيلوغرامًا من البوريليوم. النقطة الأخرى التي أؤكد عليها، والتي من المهم جدًا تذكرها، هي أن بناء قنبلة ذرية كروية الشكل مزودة بعاكس من ١٤ كيلوغرامًا من اليورانيوم-٢٣٥ ليس سلاحًا عالي التقنية. أود التأكيد على أنه ليس سلاحًا عالي التقنية، فالسلاح عالي التقنية هو الذي يُصنع عند محاولة تفجيره لزيادة كثافته بحيث تصبح الكتلة الحرجة أصغر. لذا، أنت بحاجة إلى عدسة متفجرة متطورة لا تُفجّر الأشياء في كل مكان مع الـ ١٤ كيلوغرامًا. كل ما عليك فعله هو تجميع القطع. ويفترض وجود كتلة دون حرجة بها فتحتان، حيث تُدفع المكونات التي تُشكّل الكتلة الحرجة بشكل متفجر إلى المركز. هذا ليس جهازًا تحتاج إلى اختباره للتأكد من أنه سيعمل.

لقد أسقطنا قنبلة «ليتل بوي» على هيروشيما دون إجراء أي اختبار نووي عليها. أجرينا اختبارًا، بالطبع، باستخدام اليورانيوم-٢٣٨. بمعنى آخر، تأكدنا من أن آلية التجميع لن تتعطل بأي شكل من الأشكال، وكان ذلك سهلاً للغاية. يعمل اليورانيوم-٢٣٨ تمامًا مثل اليورانيوم-٢٣٥ في البندقية، كما تعلمون، في تكوين ماسورة البندقية. لذا، إذا أمكن تحقيق ذلك باستخدام اليورانيوم-٢٣٥، فإن اليورانيوم-٢٣٨ هو سلاح. وبالتالي، فإن فكرة أن الإيرانيين سيحتاجون إلى إجراء الكثير من الاختبارات هي فكرة خاطئة تمامًا. ببساطة، ليس عليهم إجراء اختبارات للحصول على قنبلة، وليس عليهم إجراء اختبارات للتأكد من أن قنبلتهم ستعمل. الآن،

ما هو الوزن المطلوب للقنبلة؟ حسنًا، لديك حوالي ٥٠ كيلوغرامًا من المواد، بما في ذلك العاكس، الذي سيكون أكبر من هذا. لنفترض أن وزن الجهاز بأكمله ضعف وزن المكونات النووية. لنفترض أنه يزن ثلاثة أضعاف وزن المكونات النووية. إذا أعطيته ثلاثة أضعاف وزن المكونات النووية، فسيكون وزن الجهاز القابل للإطلاق ١٥٠ كجم. حسنًا، متوسط وزن الصاروخ بعيد المدى الذي يحمل متفجرات إلى تل أبيب وحيفا هو ٤٥٠ أو ٥٠٠ كجم من المتفجرات. هذا يعني أن حمولة أحد هذه الصواريخ. يمكنك إطلاقها على مسار مرتفع جدًا أو أي مسار آخر يجعل اعتراضه أكثر صعوبة، على الرغم من أن احتمالات الاعتراض منخفضة جدًا. أعني أنك لن تفعل ذلك حقًا، فالصواريخ الاعتراضية ببساطة لا تعمل، ولكن يمكنك فعل ذلك لضمان وصول السلاح بثقة عالية. فإن فرص اعتراضك عمليًا معدومة. فموثوقية محرك الصاروخ الذي يطلق الرأس الحربي هي أدنى مستوى من الموثوقية التي ستتعامل معها فيما يتعلق بإيصال الأسلحة النووية. فإذا كانت موثوقية محركاتك ٩٥٪ أو ٩٧٪ أو ٩٨٪، وتبدو موثوقة للغاية، فهذه هي فرصتك في عدم نجاحك في إيصال سلاح نووي. وبالتالي، لديك ضمان بنسبة ٩٥٪ أو ٩٨٪ لإيصال السلاح النووي إذا كنت إيران.

إنهيار المعايير الاخلاقية الغربية والاسرائيلية

هذا هو الوضع الراهن. هذا هو الفشل. لأن المعايير الأخلاقية قد تدهورت. الوضع أشبه بدولة نازية الآن. عندما يكون لديك أشخاص مستعدون لارتكاب مثل هذه الأعمال الإجرامية، فأنت تصل إلى حالة ألمانيا النازية. لا مجال للمراوغة. أعني، كما تعلمون، الجنود الذين ينتمون إلى دولة تسودها الأخلاق سيرفضون القيام بما يحدث في غزة. الأمر بهذه البساطة. أعتقد أن أحد العيوب الرئيسية في الخطاب السياسي الحالي في الغرب هو عدم القدرة على تحديد مصالح الدول المعارضة. أي إدراك ما يجب على الخصوم فعله مقابل ما تريدهم أن يفعلوه. على سبيل المثال، كما قلت، لو كنت مستشارًا لإيران لقلت لهم: احصلوا على سلاح، ولا تخبروا أحدًا. يجب أن تكونوا مستعدين على الأقل. الآن، سأقول الشيء نفسه. أعتقد أن إيران في هذه المرحلة ستخطىء إن لم تطور سلاحًا نوويًا. مرة أخرى، لو كنت مستشارًا، ، لقلت إنهم سيأتون إليكم مرة أخرى. لن يتوقفوا قبل أن تصبح إيران ليبيا أخرى، أو سوريا أخرى، أو العراق آخر، أو أي بلد آخر. وهذا لا يعني أنني أرغب في رؤيتهم يمتلكون أسلحة نووية. رغم اعتقادي ان هذا سيحصل.

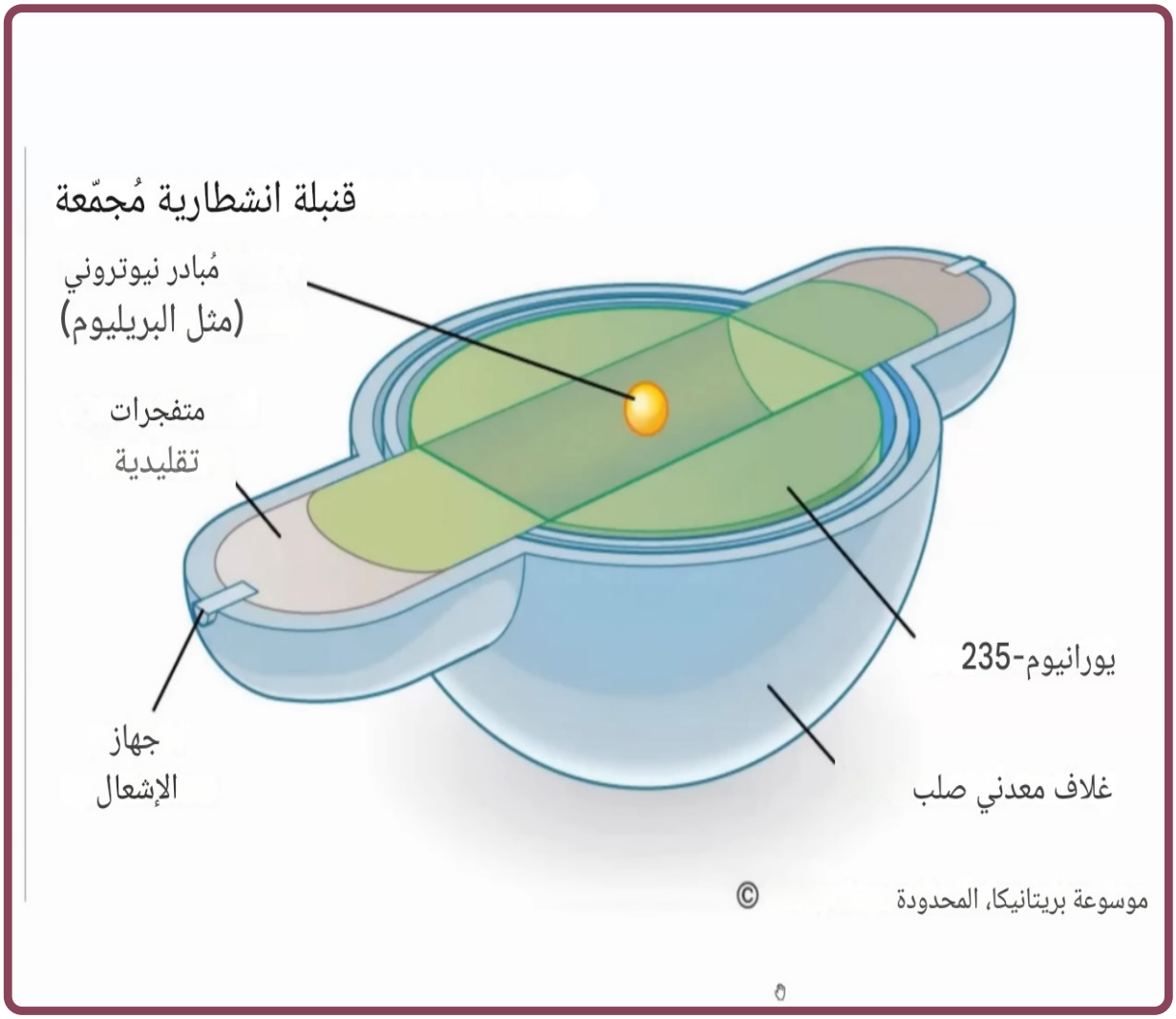

السيد عادل عبد المهدي

٢٠٢٦/٢/١٠

المصدر:

الميادين

إنتهت الحرب الكبرى، وتبقى المعارك والتسويات الصغرى

بعد «طوفان الاقصى»، وحرب الابادة الاسرائيلية والتوحش والاغتيالات، وبعد المقاومة البطولية في غزة والضفة ولبنان والصمود الاسطوري، وبعد موقف يمن العز وإغلاقه البحر الأحمر امام السفن الذاهبة الى «إيلات»، وإرغامه الحاملات الامريكية على الانسحاب من البحر، وبعد موقف المقاومة في العراق ـ ولو بشكل اقل، لكنه المؤثر بما يحمله العراق من طاقات، وبعد موقف الجمهورية الاسلامية في ايران في الوعد الصادق ١ و٢. وخصوصاً بعد الوعد الصادق ٣ في حرب الاثني عشر يوماً في حزيران ٢٠٢٥، وبعد انتقال المعارك الى الارض التي يقف عليها العدو غاصباً، وبعد نتائج حرب اوكرانيا، وبعد التباعد المتزايد بين اوروبا وكندا وبلدان اخرى من جهة والولايات المتحدة من جهة اخرى، وبعد تعمق الازمات الاقتصادية والمجتمعية والسياسية والشرعية والاخلاقية في الولايات المتحدة، خصوصاً والغرب عموماً، بما في ذلك في «اسرائيل»، وبعد الادانات الدولية وتحول الشارع الغربي والعالمي لمصلحة فلسطين بما في ذلك بين مسيحيي ويهود العالم، وبعد التصاعد المتسارع للصين واتفاقات «بريكس» و«شنغهاي»، وبعد التغير النسبي في مواقف دول المنطقة من التطبيع واتفاقات ابراهام، وبعد التقارب السعودي الايراني، والمصري الايراني وغيرهما.

بالمقابل، رغم اغتيال كبار القادة وفي مقدمتهم سماحة الشهيد السيد حسن نصر الله قُدس سره، ورغم ما جرى في سوريا من انقطاع خطوط التواصل بين لبنان وسوريا والعراق وايران، ورغم مشاريع «اسرائيل الكبرى» او مشاريع «مجلس السلام»، ورغم ما يجري من ضغوطات سياسية وحملات اعلامية، ورغم «الارمادا» الأمريكية والغربية والاسرائيلية لترهيب ايران، وبعيداً عن كل الضجيج الذي يريد ان يسلب العقول الصاحة السليمة ليأخذ بها الى عالم الاوهام والتهديدات والسرديات المضللة،

يمكن بعد كل ذلك، ورغم كل ذلك ان نقسم عالمنا الحالي جبهتين رئيسيتين.

الأولى ضابطة بكل المعايير رغم قوتها وبأسها،

والثانية صاعدة بكل المعايير، رغم الكثير من عوامل الضعف فيها:

١- نظام الهيمنة العالمي أو النظام القديم، والعودة للتوحش المكشوف:

ويمكن تسمية هذه الجبهة بـ «جبهة الرأي». فقادتها ومنظماتها ودولها يعفون انفسهم من اية ضوابط او قواعد او اعراف او قوانين دولية تحكم سلوكهم. وهم يرفضون اية احكام أممية، حتى تلك التي تصدر من محاكمهم ذاتها. وهم يتخلون عن منظمات وهيئات اسسوها هم، لتكون إطارات تمكنهم من الهيمنة على العالم باسره.

هؤلاء يعودون –اليوم- الى اصولهم الاولى في التوحش. وعمل كل ما يحلو لهم. كما كانوا يفعلون منذ القرن السادس عشر حتى القرن العشرين. فقراراتهم وسياساتهم هي قناعات واراء خاصة، كما يعبر الرئيس ترامب نفسه بذلك. ليكون لسان حاله، كما لسان حال نتنياهو: «بانني العالم، والعالم أنا». هذه الجبهة يمكن وصفها كما يحللها البروفسور الاسرائيلي المعروف «ايفال هراري» (الذي وضع كتباً عن تطور الانسان والمجتمعات الانسانية قبل ٥٠٠٠٠ عاماً كتباً اصبحت هي الاكثر مبيعاً خلال العقد الاخير)، قائلاً في احدى محاضراته قبل ايام:

«لماذا تنهار المجتمعات المتقدمة»؟. فيجيب «لانها تعيش الوهم الجماعي، الذي يتحول الى عقيدة تقود الى انهيار الحقيقة».

«طوفان الاقصى» وحرب الابادة وانكشاف الوجه الحقيقي لـ«إسرائيل» والدعم الامريكي غير المحدود، هي التي قادت لهذا التحول العالمي في الشارع والجامعات الغربية والعالمية. فانهيار الحقيقة الوهمية لديهم وانكشاف الحقيقة الأصيلة، هما ما جعلا غزة سيدة العالم. ووفر الوقود الحقيقي لمقاومة هيمنة النظام العالمي، الذي اسس «اسرائيل» والذي يحميها ويديمها.

لهذا يشهد الغرب ونظام الهيمنة العالمي تطورات وجودية بنيوية، يقول معظم العلماء والباحثين الجادين انها غير قابلة للحل. وإنها قد بدأت، وستتعمق اكثر فاكثر. تطورات من شأنها انهاء النظام القديم وبناء نظام جديد.

بل أن كل المؤشرات تشير ان تلك الانهيارات تتسارع اكثر من اللازم بسبب السياسات الجوفاء التي تتخذها تلك القيادات والدول. وهكذا بدأنا نشهد بالفعل تفكك العلاقات بين اوروبا وامريكا. وتراجع حلف الناتو. وازدياد الازمات الاقتصادية والقانونية والحقوقية والسياسية والمجتمعية والأخلاقية داخل كل دولة، وفيما بينها.

ودون الدخول في التفاصيل، يقدم لنا رئيس وزراء كندا «مارك كارني» ابرز مثال، عبر منصة منتدى دافوس العالمي، قائلاً: «ان النظام العالمي انتهى ولن يعود».. و«أن قوة النظام لا تأتي من حقيقته، ولكن من استعداد الجميع للتصرف كما لو كان صحيحاً».. و«إن القوي يستطيع أن يفعل ما بوسعه والضعيف يجب ان يعاني».. «وأن دولاً ككندا ازدهرت في ظل ما نسميه النظام الدولي القائم على القواعد.. انضممنا الى مؤسساتها، واثنينا على مبادئها، واستفدنا من إمكانية التنبوء بها. كنا نعلم ان قصة النظام الدولي القائم على القواعد كانت خاطئة جزئياً. أن الاقوى سيعفي نفسه عندما يكون ذلك مناسباً.. وكنا نعلم ان القانون الدولي ينطبق بصرامة متفاوتة، اعتماداً على هوية المتهم أو الضحية. كان هذا الحال مفيداً. وساعدت الهيمنة الاميركية على وجه الخصوص بتوفير المنافع العامة.. تشاركنا في الطقوس. وتجنبنا الى حد كبير ذكر الفجوات بين البلاغة والواقع. هذه الصفقة لم تعد تعمل»، و«نحن في خضم تمزق وليس مرحلة انتقالية» و«لا يمكنك العيش ضمن كذبة المنفعة المتبادلة من خلال التكامل، عندما يصبح التكامل مصدر التبعية». و«ان الدولة التي لا تستطيع إطعام نفسها أو تزويد نفسها بالوقود او الدفاع عن نفسها، لديها خيارات قليلة. عندما لا تحميك القواعد عليك حماية نفسك». و«الكنديون يعرفون ان افتراضاتنا القديمة والمريحة بان جغرافيتنا وعضويتنا في التحالف تمنح الرخاء والأمن تلقائياً لم تعد صالحة». و«ازعم ان القوى الوسطى يجب ان تعمل معاً لأننا إذا لم نكن على الطاولة فنحن على قائمة الطعام».. «نحن نعلم ان النظام القديم لن يعود. لا يجب ان نحزن عليه. الحنين ليس استراتيجية».

ويصرح الرئيس الفرنسي ماكرون يوم العاشر من الشهر الجاري قائلاً: «إدارة ترامب معادية للاتحاد الأوروبي وترغب في تفكيكه».

وتعزيزاً لهذه الرؤية تنشر صحيفة «الغارديان» البريطانية استطلاعاً جرى في كانون الثاني/يناير ٢٠٢٦، يتناول النظرة السلبية او الايجابية نحو الولايات المتحدة، بين عامي ٢٠١٦ و ٢٠٢٦، فكانت النتائج كالاتي: في المملكة المتحدة، كان اكثر من ٥٠٪ ايجابياً، وحوالي ٣٠٪ سلبياً (واصبح ٦٤٪ سلبياً). وفي الدنمارك، كان حوالي ٥٥٪ ايجابياً، وحوالي ٣٠٪ سلبياً (وأصبح ٨٤٪ سلبياً). وفي فرنسا، كان اكثر من ٥٠٪ ايجابياً، واقل من ٤٠٪ سلبياً (وأصبح ٦٢٪ سلبياً). وفي المانيا، كان اكثر من ٤٥٪ ايجابياً، واكثر من ٣٥٪ بقليل سلبياً (واصبح ٧٢٪ سلبياً). وفي ايطاليا واسبانيا لم يجر الاستفتاء في ٢٠١٦. وفي ٢٠٢٦ كان السلبي ٦٣٪ في ايطاليا و٦٦٪ في اسبانيا.

• أين ثقل «إسرائيل» من هذا التحول:

إما بالنسبة لـ«إسرائيل»، فقد انتقلت من قوة اضافية رابحة للغرب عندما كان الاخير قوياً. لتتحول –مع الخط الهابط العالمي للغرب- الى عبء كبير مادياً واخلاقياً وقانونياً وسياسياً، خصوصاً بالنسبة للولايات المتحدة الامريكية.

يقول القس الأمريكي جون شيهان:

«كلما يقول شخص بان «اسرائيل» هي صديقنا الوحيد في الشرق الاوسط، لا استطيع الا ان افكر بانه قبل «اسرائيل»، لم يكن لدينا اعداء في تلك المنطقة»

تعيش «اسرائيل» اليوم قلقاً وجودياً جماعياً، وليس فردياً او استثنائياً كما كان في السابق. فهي باتت **مهددة** في عقر قلاعها. **مهددة** بالمقاتلين الشجعان الذين لا يهابون الموت. **مهددة** بالانقسامات الداخلية الحادة. **مهددة** بالازمات الاقتصادية التي جعلتها تعتمد كلياً على الولايات المتحدة الامريكية بعد ان كانت تمثل استثماراً ناجحاً لها في كافة المجالات. **مهددة** بكثرة الخسائر البشرية من قتلى ومصابين التي تقع في صفوفهم، وفقدان ثقة مجتمعهم بجيشهم، ورفض الحريديم التطوع في صفوف الجيش. **مهددة** بالهجرة العكسية التي تجاوزت كل الخطوط الحمراء. **مهددة** بتراجع المعنويات والضياع والفساد الذي جعل جنودهم ومواطنيهم يُهربون الاسلحة، ويبيعون الاسرار، ويصورون المواقع. **تُهدد** الصواريخ والمسيرات التي باتت تطال اكثر مواقعهم حساسية وتحصيناً. **تهددها** القوى الكامنة التي تمتلكها شعوب الامتين العربية والاسلامية، اضافة لاحرار العالم. **يهددها** محيطها المعادي لها. وتشعر **بالتهديد** حتى من دول وتشكيلات تعتبرها، او كانت تعتبرها، حليفاً اكيداً لها.

فالحلم الاسرائيلي يتهاوى. وهنا تنطبق عليهم ايضاً تحليلات «يوفال هراري»، ولكن بشكل مقلوب.

فالحقيقة الفلسطينية التي كشفتها حرب الابادة في غزة، والتوحش اللامتناهي الاسرائيلي، دمرت نظرية مظلوميتهم، لتحطم العقيدة وسرديتها التي ربوا عليها اجيالهم المتعاقبة، ولتزيل في النهاية الأوهام التي كانت تعيشها شعوبهم. وهذا ما يفسر الانقلاب السريع والجذري في مواقف شباب وشعوب المعسكر الغربي بمجمله. وخروج المظاهرات الحاشدة في كل ارجاء العالم.

٢- جبهة المستقبل بما فيها جبهة المقاومة:

بالمقابل يولد اليوم امام اعيننا نظام عالمي جديد. نظام قد لا يكون فيه شرطي عالمي. ودول استعمارية او مهيمنة تفرض شروطها على الاخرين. وهنا نتوقف قليلاً لنقول. باننا نحلل انهيار نظام عالمي متكامل، وقيام عالم جديد. وعندما نتكلم عن هذه العملية الكبرى فلا نقصد ان هذه الامور يجب ان تقاس بمعنى السياسات اليومية. بل يجب ان تقاس بمعنى التحولات التاريخية الكبرى. التي ستأخذ مديات غير قصيرة لتتحول الى حقائق ذات مقبولية عامة. لكن الواجب هو تبيان تباشيرها ومبانيها. لان حسن التشخيص المسبق، هو الذي يقود الى حسن تقدير الموقف، ووضع السياسات التكتيكية إنطلاقاً من الرؤى الاستراتيجية. بخلاف ما يفعله البعض الذين يغرقون في الاحداث اليومية بحجة الواقعية وقوة العدو، ويتغافلون عن هذه التطورات الكبرى. فتراهم يخافون من إشاعة، ويتطيرون من تهديد، ويستسلمون لاملاءات العدو وأوامره.

نرى إن العالم يسير نحو عالم حضارات وامم ودول متجاورة. فلو جاز لنا تصور العالم كدولة واحدة. فإننا سنقول بان هذا العالم سيسير نحو عالم كونفدرالية او فيدرالية كونية Cosmic Federalism ليحطم العالم المركزي المتحكم ببقية الشعوب طوال القرنين الاخيرين، والذي مهدت لهما ـ قبل ذلك ـ قرون التوحش والغزو والاستيلاء والاستعباد والنهب والاستيطان المباشر. ويمكننا في هذا العالم ان نرى المستويات الاتية، على الاقل في المنظور المتوسط او حتى القريب نسبياً:

• نظام عالمي غير مركزي يُنهي المركزية الأورو-أمريكية التي قامت على التدخل في شؤون الدول السياسية والسيادية. يحترم ذلك الجانب من ميثاق الامم المتحدة الذي ينص على ان من حق اي دولة ان تقيم النظام السياسي الذي يناسبها، وحظر التدخل في شؤونها. إذ تنص المادة ١/٢: «تقوم الهيئة على مبدأ المساواة في السيادة بين جميع اعضائها». وتنص المادة ٤/٢: «يمتنع اعضاء الهيئة جميعاً في علاقاتهم الدولية عن التهديد باستعمال القوة او استخدامها ضد السلامة الاقليمية او الاستقلال السياسي لأية دولة». وتنص المادة ٧/٢: «ليس في هذا الميثاق ما يسوغ للأمم المتحدة أن تتدخل في الشؤون التي تكون من صميم السلطان الداخلي لدولة ما».

كما يؤكد إعلان مبادىء القانون الدولي بالقرار ٢٦٢٥ لعام ١٩٧٠ على «عدم جواز التدخل في الشؤون الداخلية لأية دولة» فـ«لكل دولة حق غير قابل للتصرف في أن تختار نظامها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي» و «لكل دولة واجب الامتناع عن التدخل في الشؤون الداخلية لأية دولة اخرى».

فلا تظهر مركزية النُظم الدولية الا في الشؤون الشمولية. كقضايا المناخ، وتدمير اسلحة الدمار الشامل، والصحة العامة، وتبادل العلوم، وشؤون الفضاء الخارجي، ومحاربة الفقر والارهاب، وكل ما هو مشترك ويتطلب توافقاً عالمياً شاملاً. نظام جديد تتكون اثقاله من الشعوب والحضارات المختلفة، وليس من مراكز قوى الهيمنة اساساً. نظام جديد تغيب عنه المضامين الاستعمارية والاحتلالية والنهب والمركزية الاستعمارية والفردية والتدخل والعقوبات والحصار. ولا تستخدم فيه القوة ضد طرف يهدد السلام الجماعي او يقوم بالابادة الجماعية، إلا وفق معايير دولية واضحة، لا تستخدم ازدواجية المعايير، أو أحادية الانتماءات والولاءات.

• نظام ستتقدم فيه القوى الصاعدة خصوصاً من دول المستعمرات القديمة في اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية. متمثلة اليوم بمجموعات «بريكس» و«شنغهاي» وغيرهما. دول باتت تمتلك القدرات الاقتصادية والعلمية والثقافية والمجتمعية الاكثر حيوية والاكثر عدالة.

• نظام ستتفكك فيه عوامل التبعية التقليدية، وسيشجع تقدم القوى الصاعدة، الدول الخائفة والضعيفة، لتتحرر – ولو تدريجياً- من عوامل الخضوع والتبعية. فعوامل التدخل والهيمنة والنهب الخارجي ستضعف. وستزداد التعاملات المتكافئة. مما سيولد دورات انتاج مفاهيمية وقيمية واقتصادية واجتماعية وعلمية وتنظيمية، تُحدث التراكمات الايجابية التي من شأنها احياء مرتكزات سيادتها الحقيقية، وحضارتها وانجازاتها.

• نظام تعيد فيه الولايات المتحدة الأمريكية والدول الوسطى –او ما يسمى اليوم بالغرب- عملية تجديد الذات. فالغرب بمنجزاته الكبيرة، وبعد تحرره من النزعات الاستعمارية والعنصرية والاستعلائية والاستيطانية والصهيونية، هو شريك طبيعي لبقية القارات والحضارات والشعوب ومناطق ودول العالم الاخرى.

٣- الحرب الكبرى حُسمت في حزيران ٢٠٢٥:

صحيح ان معركة اوكرانيا قد مهدت الطريق لتراجع الولايات المتحدة، ولتفكيك موقف الناتو والدول الاوروبية. وصحيح ان نهضة الصين وتقدم بركس وشنغهاي قد وفرا أرضية العالم الجديد، وتعمق ازمة النظام القديم بكل ابعادها العسكرية والاقتصادية والسياسية والاخلاقية والقانونية، وصحيح ان «طوفان الاقصى» ومعارك غزة والضفة ولبنان واليمن والعراق وإيران قد بينت صلابة محور المقاومة ووحدة الساحات، وصحيح ان تفاعل الشارع العالمي مع فلسطين، وادانة «اسرائيل» بجرائم الحرب والابادة الجماعية، وإنها قد وضعت «اسرائيل» ومن يقف معها في المسار المتهاوي من التاريخ، وصحيح اننا خسرنا خيرة قادتنا ومقاتلينا شهداء في طريق هذا النصر.

لكن الصحيح ايضاً ان معركة الاثني عشر يوماً في حزيران ٢٠٢٥ مع الجمهورية الاسلامية في ايران –وتتصل بها صواريخ اليمن على الحاملات الامريكية والكيان الصهيوني– كانت بمثابة معركة «ستالينغراد» في الحرب العالمية الثانية. فما دام استخدام النووي سيبقى بعيداً عن الاستخدام، رغم إعتقاد البعض ان «إسرائيل» قد تستخدمه اذا ما شعرت بتهديد وجودي حاسم. وما لم تحصل مفاجآت كبرى في الحملة التي تقودها «الارمادا الاميركية» الحالية. والتي تراجعت سقوفها كثيراً بعد القضاء على المؤامرة الداخلية وضرب «الستارلينك»، ومع إستحالة الاجتياح البري الذي يتطلب حسب رأي اللوتينيت كولونيل الأمريكي «دانيال ديفيد» الى ٣٠٠٠٠٠–٤٠٠٠٠٠ جندي ينزلون الى البر الايراني، ومع إعلان ايران تغيير عقيدتها الحربية من ضربة مقابل ضربة، الى ضربة مقابل حرب لا سقوف لها، مع ذلك كله، وبسببه، دخلت الولايات المتحدة المفاوضات وفق الشروط الايرانية لتكون في عُمان وليس تركيا. مفاوضات حافظ الطرفان فيها على الاحترام المتبادل والكلمات المحسوبة جيداً، كدليل بأنها الخيار الاكثر واقعية في مثل هذه الظروف. وسننتظر الأيام لنرى التطورات، خصوصاً مع زيارة «نتنياهو» لواشنطن المقررة يوم الاربعاء ١١ من الشهر الجاري.

فإن خرجت الجمهورية الاسلامية –بالحرب او بالتفاوض– سليمة في نظامها وعقيدتها وبناها وادوات ردعها –لاسيما منظومتها الصاروخية– فإنها ستكون البرهان اليقيني من الخط النازل لنظام الهيمنة العالمي. وهي ستخرج منتصرة إن شاء الله. فالولايات المتحدة و«اسرائيل» والغرب عموماً يمتلكون قدرات عسكرية هائلة. قد تكون هي الاقوى عالمياً. لكن القوة بدون الارادة البشرية، والشرعية العدلية والعقلائية والاخلاقية، هي حديد بارد، وقوة نارية هائلة ترتد على مطلقيها، كما يقولون. وهذه نقطة فاصلة في التاريخ البشري المعاصر. فأمامنا نظام قديم يتهاوى، ونظام جديد يتصاعد. ومن هذا المنطلق الحتمي يجب البناء وتقدير الموقف.

٤- المعارك والتسويات الصغرى:

وكالمعتاد عندما يظهر في الافق نظام عالمي جديد ويتراجع النظام القديم فان الدول والانظمة التي كانت تدور في فلك النظام القديم سترى اضطراب مساراتها ومرتكزاتها، بالمقابل سترى دول وانظمة اخرى حالة انتعاش محمولة بزخم التيارات الصاعدة للعالم الجديد.

• بعض الانظمة المعتاشة على النظام القديم ستدخل في مراحل الفراغ والفوضى. مما سيهدد باضطرابات لفترة من الوقت. إلى ان تبرز من داخلها قوى تستطيع التحكم بمساراتها، او تأخذ بيدها وتحتويها قوى اقليمية أو دولية اكبر منها. هذه الانظمة والدول ستكون عموماً تلك التي ستستمر بانكار ما يجري حولها، واضعة مصيرها كلياً، تبعاً لمصير غيرها.

• واخرى ترتب امورها ادراكاً منها لما يحصل في العالم اليوم. فتجري تسويات وتحالفات جديدة. تساعدها في التماشي مع التطورات الجديدة. لتبني لنفسها نظاماً يتعايش مع الاوضاع الجديدة.

• وثالثة قد تنهار نهائياً وتفقد علة وجودها.

• وفي جميع هذه الحالات. لن يكون -لا الانهيار ولا الصعود- خطياً وآلياً. صحيح ان جميع هذه المنظومات والدول لم تتكون أساساً بفعل فاعل داخلي فيها. بل هي نتاج تطور الاوضاع العالمية بعد الحربين العالميتين الاولى والثانية. لكنه من المعروف في العلوم الاجتماعية/الاقتصادية/السياسية ان هذه التشكيلات تحوز الى حد ما استقلالية دفع ذاتية تنفصل فيه عن المصدر الاساس المولد لها. وعليه قد نرى اتجاهات في حركتها تسير بالضد من المسار العام احياناً. او نرى سرعة تأثر اقل من سرعة التحولات العالمية. وفي كل الاحوال فإن المحصلة النهائية، ستُظهر هذه الدول والأنظمة وقد تماهت عاجلاً أم اجلاً مع المسارات العالمية، الصاعدة أو النازلة. وهذا الأمر يشبه مثلاً قضية الدولار. فلاشك فيه ان الدولار ما زال هو العملة الرئيسية في التجارة الدولية، لكن دوره شهد تراجعاً على صعيد الاحتياطيات المالية الاساسية كدليل على تراجع الثقة به. فتراجع الى اقل من ٥٨٪ من الاحتياطات بعد ان كان قبل عقود قليلة اكثر من ٧٠٪. بينما نراه في دولنا يتصاعد. فالعوامل هنا تختلف عما هي عليه عالمياً. لكن لن يمر وقت طويل الا وتستقر الأمور حسب القاعدة العامة الكبرى والاساسية.

• نرجح ان تقسيمات سايكس-بيكو، إن لم تختفِ كخرائط سياسية، فإنها ستختفي كتعاملات بين شعوب وبلدان المنطقة. فـ«داعش» حطمت سايكس-بيكو. كذلك فعلت «اسرائيل» وتبعتها الولايات المتحدة حيث صرح «توم باراك» بان سايكس-بيكو قد إنتهت. فافكار مثل «اسرائيل الكبرى» و«الشرق الاوسط» الجديد، واستخدام قوى الارهاب لقلب الاوضاع في لبنان او في العراق او في غيرهما. كلها مشاريع عابرة للحدود. مشاريع تعيش تحت حقيقة مظلة منظومة الهيمنة العالمية، أو في ظل اوهامها. وبعد تراجع مجمل هذا النظام، الذي اسس لسايكس-بيكو وتقسيماته، فستنهار الكثير من الاسس التي قام عليها النظام الاقليمي. وفي إطار مثل هذا التفكك نرى ما يحصل في العديد من بلدان المنطقة كالسودان وليبيا. او ما حصل لقطر في حزيران/يونيو ٢٠١٧ من قطع معظم دول الخليج ومصر العلاقات معها. وفرض الحصار عليها بتهمة دعم الارهاب والتعامل مع ايران. أو تفكك التحالف السعودي/الاماراتي في اليمن مؤخراً، الخ.

ففترة التجزئة قد بنت حقائق محلية غير بسيطة. لكننا نعتقد ان التيارات الكبيرة لابد ان تهزم التيارات الصغيرة، لمصلحة شعوب المنطقة. وان تستعيد الشعوب علاقاتها وارتباطاتها التاريخية، وان تتمتع بحرية الانتقال والعمل والاقامة والتصاهر وغيرها من امور عاشتها المنطقة لالاف السنين.

٥- أين موقف محور المقاومة من هذه التطورات:

بالطبع لن تجري الامور بشكل ميكانيكي. فالتراجع الحاصل على صعيد عالمي قد يقابله احياناً تقدم على بعض الصعد المحلية. ولو الى حين.

أ- لاشك لدينا ان دول محور المقاومة ستكون من الدول الصاعدة التي ستحملها الامواج الإيجابية لترتقي مراتب في النظام الإقليمي والعالمي. كما لا شك لدينا ان قوى المقاومة داخل بلدانها ستجد توسعاً في بيئتها ومواقفها التي ستنعكس ايجاباً في اطارات دولها وانظمتها.

ب- نعتقد ان «طوفان الاقصى» وما تلاه من مقاومة وصمود وتداعيات في فلسطين وفي محور المقاومة بمجمله، وفي حرب الاثني عشر يوماً، هي أحداث خطيرة قد ادخلت تطورات مهمة علىفي استراتيجية المقاومة. فالردع الذي كانت تمثله غزة ولبنان قبل «طوفان الاقصى»، انتقل الى ردع تمثله الجمهورية الاسلامية واليمن وإلى حدود اقل العراق بصواريخهم ومسيراتهم. ومع الاستنزاف الذي يحصل في داخل الكيان والاحساس بانهم يعيشون حرباً دائمة، فان حقائق جوهرية قد تغيرت. فـ«اسرائيل» لا تستطيع انتظار «طوفان اقصى» جديد، ولا تتحمل بناها تقدماً ميدانياً تضطر فيه لدفع كلف بشرية كبيرة، لا هي ولا حلفائها. ومع تقدم البرنامج الصاروخي على الملف النووي، حيث يقع النووي ضمن سياسية الردع، بينما بات الصاروخي سلاح المعارك الجارية. فـ«إسرائيل» لا تستطيع تحمل الصواريخ وهي تنهال على رأسها، وإن كل وسائل دفاعها او هجومها غير قادرة على ايقاف ذلك.

ت- فإن لم تحل «إسرائيل» هذه المعضلة التي تواجهها. من خلال حملة «الارمادا الامريكية» الاخيرة، أو جولات المفاوضات الامريكية الايرانية، أو أي خيار آخر، فإنها ستكون أمام خيارين:

- **ان تنكفىء على نفسها وتعزز دفاعاتها. وهذه لا تعني خسارة بل هزيمة كبرى. فالاحتلال والاستيطان لم يؤسسا ليكونا سجناً لمن كانوا يحلمون بمجتمعات اللبن والعسل. بل يعتمد مشروعهم على اقتضام لجزء ليقودهم لاقتضام المزيد. وصولاً لـ«اسرائيل» الكبرى. لهذا بقي كيانهم بدون دستور، وبدون حدود.**
- **او الخروج الطائش الى خارج حدود الكيان الحالي. وهذا ما تقوم به حالياً. وقد حققت نجاحات في سوريا، وتسعى لتحقيق شيء مشابه في لبنان او في غزة وغيرهما. لكنها هنا ستصطدم بمصالح واعتبارات جديدة. وستكون مضطرة للتعاون والتحالف ودعم من قد يتحولون الى اعدائها. فاولئك إن بقوا ضعافاً فلا فائدة منهم. وإن مكنتهم «اسرائيل» بمصادر القوة المعنوية والمادية . فقد ينقلبون عليها. وإلانقلاب هنا اقرب من بقاء الموالاة. فهذه قوى تختلف من حيث نشأتها وواقعها وارتباطاتها ومطامحها النهائية عن «إسرائيل». لذلك ستبرز لهذه القوى طموحاتها ومشاريعها الخاصة. هكذا هو وضعهم مع مجاميع «ابو شباب» في غزة. او في ترددهم من دخول حرب برية في لبنان. او مع المجاميع في سوريا. وإن بعض الافكار التي يطرحها «توم باراك»، كاستثمار المجاميع الارهابية لمهاجمة حزب الله في لبنان او الحشد الشعبي في العراق، كلها خيالات الجولات الاخيرة البائسة، لحروب خاسرة.**

ث- هناك نقطة مهمة لفهم التطورات الجارية في الانتقال من مرحلة الى اخرى. وذلك عندما نتكلم عن تحمل ايران ودول المحور الان مسؤولية الردع، بعد ان كانت هذه هي مسؤولية غزة ولبنان. فدور ايران ودول المحور، كان في البداية دعم قوى المقاومة. لكنه مع تطور الضغوطات على مقومات سيادتها وقوتها، بالقيود التي يريدون فرضها على برنامجها الصاروخي والملف النووي، فانه إضافة لموضوع فلسطين، الذي هو في صلب عقيدة الثورة الاسلامية، فان قضية الامن الوطني والسيادة والكرامة الوطنيتين، ستصبح جزءاً عضوياً من استراتيجية المواجهة. فإن قبلت ايران بذلك فسيتراجع دورها عن اصغر دولة من دول المنطقة. وهذا مناقض لاي منطق. فإثارة «اسرائيل» والولايات المتحدة والغرب قضايا سيادية بهذا العمق لا يخص ايران فقط. بل إن ازداد التوحش «الاسرائيلي» والحماقات الغربية، فإن حساسيات كثيرة ستتحرك لتربط بين القضية الفلسطينية والقضايا الكبرى لدول المنطقة والعالم.

ج- وهنا يأتي دور دول ومصالح اخرى في المنطقة. فمصالح تركيا او مصر او دول الخليج أو باكستان وغيرهم من دول المنطقة غير مصالح «اسرائيل». فالتعامل مع «اسرائيل» في الملف الفلسطيني شيء، قد تغلفه بعض الانانيات. لكن التعامل مع المصالح والحساسيات الاخرى لقوى المنطقة شيء اخر. فهذه القوى تحاربت وتصالحت. وتوحدت وانقسمت، خلال الاف السنين. كما يتصالح ويختلف ابناء البيت الواحد. خلافات غير وجودية قد تتجاوز وتظلم، لكنها لا تمحي ادياناً وشعوباً. في حين ان المشروع «الاسرائيلي» هو مشروع استيطاني، إحلالي، يريد ازالة القائم واحلال شيء اخر مكانه. وهذا فارق نوعي يشكل ازمة المشروع «الاسرائيلي». فتركيا تاريخياً وحاضراً لها مصالح مع غربها وشمالها وفي المتوسط ومع اليونان وقبرص المتحالفتين مع «اسرائيل» اكثر مما لديها مشاكل مع شرقها. بل يجمعها مع محور المقاومة علاقتها الايجابية المتميزة بـ«حماس». ومصر التي تزيد من تسلحها وعديد جيشها والتي مهما بلغ تهاون الحاكم فيها لكنه لا يستطيع ان يتجاوز المواقف الصلبة للشعب المصري المؤيد للقضية الفلسطينية. بهذا المنطلق يجب ان نصبر على بقية الملفات، التي لا ننكر انها تشكل نقاط ضعف في عملية المواجهة، وتشجع العدو على العدوان علينا.

ح- ما دام هناك محتل في فلسطين سواء انكفأ أو توسع، فإن المقاومة الطويلة الامد في فلسطين تبقى هي المشروع الاساس المطروح أمام قوانا وشعوبنا.

خ- ان الظروف التي سمحت بقيام المقاومة في فلسطين، وحزب الله، او الحشد الشعبي والفصائل في العراق، او موقف اليمن وايران لم تأتِ من فراغ. انها جاءت كرد فعل. فالارهاب والاحتلال والعدوان هي الافعال التي تسببت وتتسبب في ردود الفعل هذه. فالقتال امرٌ مكروه، لكنه قد كتب على الذين يرفضون الاعتداء كما يرفضون ان يُعتدى عليهم. فالقتال ليس هواية او مهنة الا للمرتزقة او المعتدين. فإن وفر القانون والنظام ما ينهي الاحتلال او الارهاب او العدوان فإن تصدي الناس والقوى سيكون واجباً كفائياً ليس إلا. اما إن عجز القانون والنظام من توفير المتطلبات التي تنهي كل ذلك -عملياً وحقيقة- فان التصدي يصبح واجباً عينياً وشرعياً ووطنياً لا مفر منه. وهنا يجب ان نقف عند موقفين إثنين.

• شرعية تلك المنظمات التي تسلحت واصبحت لها بيئة تحميها وترفدها. كما في فلسطين بسبب الاحتلال الاسرائيلي. وما في لبنان إذ تطورت المقاومة بعد غزو لبنان في ١٩٨٢، وتخلف الدولة عن تحرير الارض، بل الذهاب الى التطبيع، فقامت هي بتحرير الارض عام ٢٠٠٠ والدفاع عن البلاد امام الاجتياح الاسرائيلي في ٢٠٠٦، و٢٠٢٣ـ ٢٠٢٦. وكما في العراق إذ جاء تشكيل الفصائل والحشد الشعبي بعد العدوان والاحتلال وعمليات القاعدة ثم «داعش».

•رفض الخطط والتصورات الاسرائيلية والامريكية والغربية لاخضاع الدول صاحبة السيادة عن التمتع بكامل حقوقها المكفولة بموجب المواثيق والمعاهدات الدولية. فقوة السرديات الاستعمارية يجب ان لا تعمي دولنا وشعوبنا عن حقوقها. فدعم المقاومة المسلحة في فلسطين حق وليس ارهاباً. وحق الاستخدام السلمي للطاقة النووية او توفير وسائل الدفاع الوطني التقليدي او السيبرياني او الصاروخي او غيرها كلها حقوق سيادية. فمن يهدد أمن المنطقة ليس دولها أو الشعوب فيما بينها، بل «إسرائيل» والدول الاجنبية البعيدة التي تعتقد ان العالم ملكها. وتسعى بسبب هيمنتها الاعلامية وقدراتها العسكرية والاقتصادية ونفوذها السياسي أن تفرض منطقها. ونرى ان من واجب شعوبنا ودولنا ان تدرك ان كل هذا بدأ بالتغير. وعلينا جميعاً استثمار هذه الظروف.

د- هذه الحرب كُسبت وستُكسب بالنقاط. و«النصر

الناجـز» قد يحصل فجـأة. هذا هو منطق «حـرب المقاومة الطويلـة الأمد». فعملية الاسـتنزاف يجب ان تسـتمر قطرة فقطـرة. ويجب مواجهة مغامـرات العدو، اينمـا امكن ذلك. والاصابع سـتبقى علـى الزناد، والسـلاح الـذي باليد يجب الحفـاظ عليه. ولابد من اسـتمرار بناء القـدرات وتطويرها، والإبـداع في ابتكار الجديد منها، بما يـردع العدوان ويجعله يتراجع وينكفىء. سـابقاً كان يريد جرنا الى حروب واسـعة وخاطفة. اليوم قد تكون الاسـتراتيجية قد تطورت، مع تطور الاوضـاع الدولية، وتطور قدراتنا، ومعرفتنا بالمواضع التي تؤلمه أكثر. فإن حاول شـن الحرب، فالرد قد لا يكون السـن بالسـن، بل بحملة شـاملة تؤلمه بلا سـقوف أو محددات. كل ذلـك مع مراعاة اجواء التعبئة والوحدة بين شـعوبنا وبلداننا. فنصف الحرب تكسـب في الميدان، ونصفها تُكسب مع تأييد البيئة المحيطة والمساندة.

ذ- يجب ان يكون واضحاً لنا جميعاً بان الاحداث ومجرياتها على الارض لن تكـون واضحة كما ندعيه على الورق. ففي جبهة القوى الهابطة قد تحصـل مفاجآت غير متوقعة لتنقلب بعض القوى والقيادات فجأة على كل ما مارسته واشتهرت به سابقاً. كما ستحصل في جبهة القوى الصاعدة احداث معاكسة. وقـد تحصـل الكثير من التصدعـات بين اطرافهـا. فالوعي والتعبئـة لدى مختلف الاطراف ليسـا بالمسـتويات ذاتها. اذ تشير كل التجارب ان المراحل الاخيرة من كفاحات الشعوب قد تشـهد تراجعاً، واحياناً انهيار خيرة المنظمات والحركات والقادة. منظمات ورجالات صمدوا في اشرس المعارك، لكن عوامل عديدة قد تقع فينهارون قبل الوصول الى خط النهاية.

ر- عنـد النظـر للوضع الراهن المطـروح أمامنا، وإذا ما نظرنا من خلال عيون عدونا للاشتباكات الراهنة التي يلخصها «نتنياهو» بـ ٧ أو ٨ جبهات. فإن فيها جميعاً اشتباكات ساخنة وباردة من جهة وسـعي لتسويات من جهة اخرى. اشتباكات بلا حسـم نهائي لاحد الطرفين، وتسـويات بلا نتيجة حقيقية. مما يترك سـاحاتنا قلقـة ومتوترة، تسـمح بتكهنات وروايات وطـرح مخاوف في معظمهـا إوهام وسـرديات كاذبة. وإذا ما اسـتذكرنا موازيـن القوى الحقيقية التي تؤكد نفسـها أكثر فأكثـر على نطاق عام. وإن «إسـرائيل» رغـم كل المجازر التـي إرتكبتها ولا زالت، فإنها لـم تحقق أياً من اهدافها. فهي تألم مثلنا. ولعل ألمها اشـد واكثر قسـوة عليها وجودياً. فهي تعيش لعنة العقد الثامن كما في رواياتهم، ونحن نعيش «وعد الاخرة»، كما في الاية الكريمة من سورة الإسراء.

إنتهى

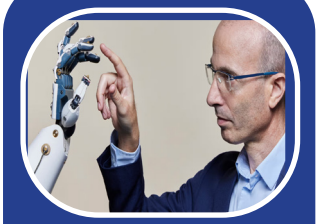

يوفال نوح هراري

٢٠٢٦/٢/٣

ست سنوات فقط، ويختفي كل ما تسميه «طبيعياً»

«يوفال نوح حراري» او «هراري»

مؤرخ «اسـرائيلي» واسـتاذ في قسـم التاريخ فـي الجامعة العبرية في القدس.

اسرائيلي متعصب للكيان الصهيوني.

مؤلف العديد من الكتب التاريخية عن السلوكيات للمجتمعات الاولى التي انتشـرت بسرعة واسعة وترجمت لمعظم اللغات ومنها العربية. وتتناول كتاباته الأولى التي عُرف بها اساساً ما يسميه بـ«الثورة الادراكية» التي حدثت قبل حوالي ٥٠٠٠٠ سـنة، عندما تفوق «إنسـان سـابينز» علـى «النيندرثالز» فأحدث الثورة الزراعيـة وتطوير مهاراته اللغوية والهياكل الاجتماعيـة التـي سـاعدته بالتفوق والسـيطرة على محيطه بشكل شبه كامل.

ينتقد «حراري»، خصوصاً بعد «طوفان الاقصى» المجتمع الاسـرائيلي بسـبب ليبراليته وتوجهـات حكومته نحو التطرف والتشدد الديني.

ننشـر له هذه المقالة فهي تؤكد ان البشـرية تسير نحو انتحارهـا الذاتي، بسـبب تطرفها في المنفعـة واللذة والسـرعة والسـهولة والمادية والانتاجية والفردانية، وغيرها مـن مرتكـزات عممها خـط التطـور الاوروبي، خصوصاً منذ القرن السادس عشر. والبعد عن الدين الحق والروحانيات والانسـانيات والفطرة الانسانية، وغيرها من امور طبيعية.) هيئة التحرير

١- مقدّمة: الصدمة الأولى

تسـتيقظ غدًا لتكتشف أن مهنتك لم تعد موجودة. لم تُفصل من عملك، ولم تكن هناك أزمة اقتصادية. ببساطة، اختفت مهنتك بأكملهـا من علـى وجه الأرض وكأنها لم تكـن موجودة قط. يبدو الأمر وكأنه خيال علمي. ربما حان الوقت لإعادة النظر فـي ذلك، لأننا على وشـك أن نشـهد أعظم ثـورة في تاريخ البشـرية. تحولٌ عميقٌ لدرجة أنه سـيجعل الثورة الصناعية تبدو وكأنها تغيير تدريجي وسـلمي. في غضون ست سنوات فقط، سيختفي كل ما تعتبره طبيعيًا ومستقرًا ودائمًا في حياتك اليومية. والأمر الأكثر رعبًا ليس حدوث ذلك، بل أن معظمنا غير مستعد تمامًا لما هو قادم.

٢- روتين يومي يبدو ثابتًا... لكنه هش

تخيل للحظة روتينك الصباحي اليوم. تسـتيقظ، تتفقد رسائلك على هاتفك، ربما تقـرأ بعض الأخبار، تتناول فطورك بينما تخطـط ذهنيًا ليوم عملك. أنت تعـرف بالضبط ما هي المهام التي عليك إنجازها، والاجتماعات التي لديك، ونوع المشاكل التي من المحتمل أن تواجهها. هناك شـعورٌ مريحٌ بالتنبؤ في كل شيء. لقد طورتَ مهاراتٍ محددة على مر السنين، وبنيتَ هويـةً مهنية، وأقمـتَ علاقاتٍ قائمة على تسلسـلاتٍ هرميةٍ وأدوارٍ واضحة. يرتبط شـعورك بقيمتك الشـخصية ارتباطًا وثيقًا بما تفعله، وكيف تُسـهم فـي المجتمع من خلال عملك. ولكـن ماذا لو أخبرتكَ أن هذا الشـعور بالاسـتقرار ليس إلا وهمًا على وشك الانهيار؟

٣-التحولات الكبرى القديمة: الزراعة

لطالما شـهدت البشـرية تحـولاتٍ عظيمة. هـذا صحيح. فقد رأى أسلافنا من الصيادين وجامعي الثمار العالم يتغير جذريًا عندمـا اكتشـفنا الزراعة قبـل حوالي ١٢٠٠٠ عـام. فجأةً، تحولـت القبائل البدوية إلى قرى مسـتقرة. وبـدأ الناس الذين يقضـون حياتهم في رعي قطعان الحيوانات بزراعة الحبوب وتدجيـن الماشـية. لقد كانت ثورةً غيـرت جوهريًا ليس فقط طريقة عيشنا، بل هويتنا كجنسٍ بشري.

٤- التحولات الكبرى القديمة: الثورة الصناعية

وبعد آلاف السنين، جلبت الثورة الصناعية تحولًا هائلًا آخر. وجد الفلاحـون الذين كانوا يزرعـون الأرض وفقًا لدورات الطبيعة أنفسهم محصورين في المصانع يتبعون وتيرة الآلات المتسـارعة. وتحولـت المجتمعات الريفية إلـى مدن ضخمةٍ مليئةٍ بالدخان. حتى مفهوم الزمن نفسـه تغير. إذا كان الناس في السـابق ينظمون حياتهم وفقًا لشـروق الشمس وغروبها، فقـد أصبح لزامًـا عليهم الآن أن ينسـقوا وجودهم مع توقيت المصانع.

٥-الفارق الجوهري: السرعة المتسارعة

ولكـن يكمن الاختـلاف الجوهـري هنا. فقد اسـتغرقت هذه التحولات السابقة أجيالًا لإتمامها. كان بإمكان فلاح العصور الوسطى أن يتوقع بشكل معقول أن يتبع ابنه نمط حياة مشابهًا لنمط حياته. حتى خـلال الثورة الصناعية، كانت التغييرات، على الرغم من كونها جذرية، تدريجية بما يكفي ليتكيف الناس على مدى عقود. كان هناك متسـع مـن الوقت لتعلم مهارات جديدة، ولتعديل التوقعات بشأن تطور المؤسسات الاجتماعية جنبًا إلى جنب مع التكنولوجيا.

أما اليوم، فقد اختفى هذا التدرج المريح. فالثورة التي نشهدها الآن لها سمة تجعلها مختلفة جوهريًا عن جميع الثورات السابقة، ألا وهي السرعة المتسارعة. لم نعد نتعامل مع تغييرات خطية حيث يجلب كل عام زيادات متوقعة من التقدم، بل نحن نركب موجة متسارعة حيث يجعل كل تقدم التقدم الذي يليه أسرع وأكثر جذرية. إنه كالفرق بين السير في خط مستقيم والوقوع في انهيار جليدي. ولمركز هذا الانهيار الجليدي اسم نعرفه جميعًا ولكن قليلون هم من يفهمونه حقا.

٦-مركز الانهيار الجليدي: الذكاء الاصطناعي

الذكاء الاصطناعي.لعقود، كان الذكاء الاصطناعي مجرد وعد بعيد المنال، موضوعًا يناقشه العلماء في المؤتمرات الأكاديمية ويستخدمه كتّاب السيناريو في هوليوود لابتكار شخصيات شريرة مستقبلية. حتى عندما بدأنا نرى أولى بوادر التقدم الحقيقية مع خوارزميات قادرة على لعب الشطرنج أو التعرف على الوجوه في الصور، بدا الأمر وكأنه شيء يمكن التحكم به، ومحدود بمهام محددة. كان الذكاء الاصطناعي أداة أشبه بآلة حاسبة متطورة. سنستخدمه لإنجاز أعمالنا بشكل أفضل وأسرع وأكثر كفاءة. لكننا سنظل نحن البشر المتحكمين.

تغير هذا التصور جذريًا في العامين الماضيين. فجأة، أصبح لدينا أنظمة قادرة على كتابة نصوص لا يمكن تمييزها عن تلك التي ينتجها البشر، وإنشاء صور تبدو كصور فوتوغرافية حقيقية لكنها تصور أشخاصًا وأماكن لم تكن موجودة قط، وتأليف الموسيقى، وحل مسائل رياضية معقدة، بل وكتابة أكواد برمجية. وهذه مجرد البداية.

٧- الذكاء الاصطناعي العام: البداية المقلقة

ما نشهده الآن هو النماذج الأولى للذكاء الاصطناعي العام. أنظمة لا تقتصر على مهمة واحدة، بل يمكنها التعلم والتكيف مع أي تحدٍ معرفي نواجهه بها. وهنا تبدأ الأمور تصبح مقلقة حقا. إن سرعة التقدم لا تتسارع فحسب، بل تتسارع بشكلٍ هائل. فكل نموذج جديد للذكاء الاصطناعي ليس أفضل بقليلٍ من سابقه، بل هو أكثر قدرةً منه بمراحل. ما كان يستغرق شهورًا لتطويره أصبح يستغرق أسابيع. وما كان يكلف ملايين الدولارات لتدريبه أصبح الآن يُنجز بجزء بسيط من تلك التكلفة. والأكثر إثارةً للإعجاب هو أن هذه الأنظمة بدأت تُحسّن نفسها بنفسها، مما يُنشئ حلقة تغذية راجعة تجعل التسارع أكثر إثارةً للدهشة.

٨- لحظة الانقلاب: شكل جديد من الذكاء

وهذا يقودنا إلى نقطةٍ حاسمة لم يستوعبها معظم الناس تمامًا بعد. نحن لا نتحدث فقط عن أجهزة كمبيوتر أسرع أو خوارزميات أكثر دقة، بل نتحدث عن ظهور شكل جديد من الذكاء يمكنه في جوانب عديدة أن يتجاوز القدرة الإدراكية البشرية. وعندما يظهر شكل جديد من الذكاء المتفوق، تتغير قواعد اللعبة تمامًا. فكل ما نعتبره طبيعيًا، وكل هياكلنا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، بُنيت على أساس فرضية أن البشر هم أكثر أشكال الذكاء تطورًا على هذا الكوكب. ولكن ماذا لو لم تعد هذه الفرضية صحيحة؟

٩- مثال تطبيقي: مهنة المحاسبة

دعونا نكون أكثر تحديدًا بشأن ما يعنيه هذا عمليًا. لنأخذ مهنة المحاسبة كمثال. لأجيال، كان العمل كمحاسب يعني إتقان مجموعة معقدة من القواعد واللوائح والممارسات. تطلب الأمر سنوات من الدراسة والخبرة لاكتساب الكفاءة الحقيقية. لم يقتصر دور المحاسب الجيد على معالجة الأرقام فحسب، بل كان يفهم الفروق الدقيقة في عالم الأعمال، ويقدم المشورة بشأن الاستراتيجيات الضريبية، ويكشف المخالفات، ويفسر البيانات المالية بطرق تولد رؤى قيّمة. كانت مهنة تتطلب ليس فقط المعرفة التقنية، بل أيضًا الحكمة البشرية، والخبرة المتراكمة، والقدرة على التعامل مع المواقف الغامضة.

اليوم، تستطيع أنظمة الذكاء الاصطناعي تنفيذ معظم هذه المهام بدقة وسرعة تفوق أي إنسان. فهي قادرة على معالجة آلاف المعاملات المالية في ثوانٍ، وتحديد الأنماط المشبوهة التي قد تغيب عن العين البشرية، وإعداد تقارير مفصلة، بل وتقديم توصيات استراتيجية بناءً على تحليل البيانات الضخمة الذي لا يستطيع أي محاسب بشري القيام به. وهذا يحدث الآن، وليس في مستقبل بعيد.

١٠- أمثلة أخرى: طب، قانون، صحافة، تعليم

لكن المحاسبة ليست سوى غيض من فيض. يكتشف أطباء الأشعة أن خوارزميات الذكاء الاصطناعي قادرة على تحديد الأورام في الصور الطبية بدقة تفوق دقة المتخصصين البشريين ذوي الخبرة الطويلة. يشهد المحامون أنظمة آلية تراجع العقود والوثائق القانونية بكفاءة تجعل البحث القانوني التقليدي عتيقاً. ويتنافس الصحفيون مع خوارزميات قادرة على كتابة المقالات الإخبارية والتقارير الرياضية وحتى التحليلات المالية المعقدة.

يواجه المعلمون حقيقة أن طلابهم بات بإمكانهم الوصول إلى معلمين آليين متاحين على مدار الساعة، قادرين على شرح أي مفهوم بطريقة شخصية وصبر لا حدود له.

وتستمر القائمة وتتوسع شهريًا. فمصممو الغرافيك، والمهندسون المعماريون، والمهندسون، ومحللو البيانات، والباحثون، والمترجمون، والمبرمجون، ومستشارو الأعمال، وعلماء النفس، وحتى الفنانون والكتاب المبدعون، جميعهم يكتشفون أن مهاراتهم البشرية الحصرية ليست حكرًا على أحد.

وهنا تكمن النقطة الحاسمة: هذا التغيير لا يحدث تدريجيًا على مدى عقود، مما يسمح للناس بالتكيف ببطء، بل يحدث في غضون سنوات، وأحيانًا أشهر.

١١- ما هو أعمق من الوظائف: معنى أن تكون إنسانًا

ولكن دعونا نتوقف لحظة لنتحدث عن شيء أعمق من مجرد استبدال الوظائف. ما يتغير حقًا ليس المهن فحسب، بل طبيعة معنى أن تكون إنسانًا في مجتمع تكنولوجي. فعلى مر التاريخ، حدد البشر قيمتهم وهدفهم من خلال العمل، ليس فقط كوسيلة للبقاء، بل كمصدر للهوية، والمكانة الاجتماعية، والشعور بالمساهمة، وتحقيق الذات. فعندما يسألك أحدهم: من أنت؟ غالبًا ما تتضمن الإجابة ما تعمل. نحن معلّمون، وأطباء، ومهندسون، وفنانون. عملنا ليس مجرد ما نقوم به من التاسعة صباحًا إلى الخامسة مساءً، بل هو جزء أساسي من هويتنا كأفراد.

تخيّل الآن عالمًا تُؤدّى فيه الغالبية العظمى من الأعمال المعرفية بواسطة الذكاء الاصطناعي. لا أتحدث هنا عن سيناريو كارثي تُهيمن فيه الروبوتات على العالم، بل عن واقع يكون فيه الذكاء الاصطناعي أفضل وأسرع وأقل تكلفةً في تنفيذ معظم المهام التي تُحدّد مساراتنا المهنية اليوم.

ماذا سيحدث لهويتنا عندما يختفي عملنا؟ كيف نجد غايةً ومعنىً لحياتنا؟ كيف نُنظم مجتمعًا لم يعد فيه المبدأ الأساسي القائل بأن الناس بحاجة إلى العمل للبقاء والمساهمة في المجتمع قائمًا؟

هذه ليست أسئلة نظرية يناقشها الفلاسفة في الجامعات، بل هي معضلات عملية وملحة سنحتاج إلى حلّها في السنوات القادمة.

مؤسسات بخرائط قديمة وهنا يكمن الجزء الأكثر إثارةً للقلق: مؤسساتنا الاجتماعية، وأنظمتنا التعليمية، وحكوماتنا، واقتصادنا، كلّها صُمّمت لعالم يكون فيه البشر هم الكائنات الذكية الوحيدة. نحن نحاول الآن اجتياز ثورة غير مسبوقة باستخدام خرائط عفا عليها الزمن.

١٢- التعليم تحت الاختبار

لننظر إلى نظامنا التعليمي. لأكثر من قرن، بنينا التعليم على فكرة أن الهدف هو إعداد الشباب لمهن محددة. درسنا الرياضيات لأننا كنا بحاجة إلى القدرة على إجراء العمليات الحسابية. تعلمنا الكتابة لأننا كنا بحاجة إلى التواصل بوضوح. طورنا مهارات الحفظ لأننا كنا بحاجة إلى استيعاب المعلومات. ولكن ماذا لو كانت هناك آلات حاسبة أكثر قوة متاحة دائمًا؟ ماذا لو استطاعت أنظمة الذكاء الاصطناعي الكتابة بشكل أفضل من معظم البشر؟ ماذا لو أصبحت جميع معلومات العالم متاحة على الفور من خلال مساعدة ذكية؟ فجأةً، يصبح كل ما نُدرّسه في المدارس موضع شك. ليس لأن المعرفة في حد ذاتها عديمة الفائدة، بل لأن التطبيق العملي لتلك المعرفة في العالم الحقيقي يتغير جذريًا. الأمر أشبه بتدريب الفرسان على القتال بعد اختراع البارود. قد تكون المهارات بحد ذاتها جديرة بالإعجاب، لكن أهميتها العملية تتلاشى بسرعة، ويتجاوز تأثيرها التعليم والعمل بكثير.

١٣- العلاقات الإنسانية في عصر التوسط الخوارزمي

لننظر كيف بدأ الذكاء الاصطناعي يؤثر على العلاقات الإنسانية. هناك بالفعل أشخاصٌ يُكوّنون روابط عاطفية مع روبوتات الدردشة المدعومة بالذكاء الاصطناعي، مفضلين التحدث مع أنظمة اصطناعية متاحة دائمًا، لا تُصدر أحكامًا، ويمكن برمجتها لتكون الرفيق المثالي. تستخدم تطبيقات المواعدة الذكاء الاصطناعي لتحسين التوافق، وإنشاء المحادثات الأولية، وحتى اقتراح مواضيع للمحادثة. تستخدم الشبكات الاجتماعية خوارزميات ذكية لتحديد المحتوى الذي نراه، مما يؤثر بشكل خفي على أفكارنا ومشاعرنا وآرائنا.

نحن نخلق عالمًا تتلاشى فيه الحدود بين التفاعل البشري الحقيقي والتفاعل الذي يتوسطه الذكاء الاصطناعي. وهذا يثير تساؤلات عميقة حول الأصالة والحميمية والتواصل الإنساني. إذا كان بإمكان الذكاء الاصطناعي محاكاة التعاطف بشكل مثالي، وإذا كان بإمكانه فهم مشاعرنا والاستجابة لها بشكل مناسب، وإذا كان بإمكانه حتى إظهار ما يبدو أنه إبداع وروح دعابة، فما الذي يجعل التفاعل البشري مميزًا؟ ما الفرق بين محادثة مع صديق بشري ومحادثة مع ذكاء اصطناعي متطور بما فيه الكفاية؟

١٤- سؤال مباشر عن الخوف الشخصي

أحتاج أن أتوقف لحظة وأسألك مباشرةً أي جانب من جوانب هـذا التحول يُثير فيـك الخوف أو القلق أكثـر من غيره. هل تُقضّ لياليك سـاهرًا تفكر فيما سيؤول إليه عملك، وأهميتك، وهويتك، عندما تتفوق عليك الآلات في كل شيء؟

أعلـم أننا غالبًا ما نُخفي هـذه المخاوف، ربما خوفًا من الظهـور بمظهر المُصـاب بجنون العظمـة أو المُقاوم للتطور في عالم يُحتفي بكل ابتكار جديد. لكن مخاوفك في محلها، ويُشـاركك فيها عددٌ أكبر مما تتخيل. إذا كان هذا الشعور يُلامس قلبك، قد يكون الأمر بسيطًا مثل كتابة: «أكبر مخاوفي بشأن مسـتقبلنا التكنولوجي هو...»، ثم إضافة مخاوفك الشـخصية. صدقك قد يسـاعد الآخرين الذين يشعرون بنفس الشيء لكنهم لم يجدوا الكلمات المناسبة للتعبير عنه.

١٥- ما هو على المحك: نهاية حقبة "الإنسان الذكي الوحيد"

لكن دعونا نعود إلى تحليلنا. هناك ما هو أعمق وأكثر جوهرية علـى المحك هنا من مجرد التغيرات التكنولوجية. إننا نشـهد ما قد يكون نهاية حقبة جيولوجية مميزة في تاريخ البشـرية، الحقبة التي كان فيها الإنسان العاقل النوع الذكي الوحيد على كوكـب الأرض. منـذ حوالـي ٧٠ ألف عام، منـذ أن طورنا لغـة معقـدة وبدأنا في بناء حضارات متطـورة، كنا الكائنات الوحيدة القادرة على التفكير المجرد، والتخطيط طويل الأمد، والإبداع الفني، والتعاون على نطاق واسع. هذه الخصوصية شكلت بشكل جذري نظرتنا لأنفسنا ومكانتنا في الكون.

بُنيت جميـع أديانـنـا وفلسـفاتنا وأنظمتنا السياسـية وهياكلنا الاجتماعية على أساس أن البشر مميزون، فريدون، مخلوقون على صورة إله ما أو نتاج عملية تطورية جعلتنا سادة الخلق. لكن ماذا لو لم نعد فريدين؟ ماذا لو ابتكرنا أشـكالاً من الذكاء لا تضاهينا فحسـب، بـل تتفوق علينا فـي كل جانب معرفي تقريبًا؟ كيف سيؤثر هذا على معتقداتنا الأساسية حول هويتنا وغايتنا في الحياة؟

١٦- منطق التفوق والسيطرة... وانعكاسه علينا

يُعلّمنـا التاريخ أنـه عندما يطوّر نوعٌ ما قـدراتٍ تفوق غيره بشـكلٍ ملحـوظ، فإنه يميلٍ إلى السـيطرة علـى بيئته وإعادة تشـكيلٍ النظام البيئـي وفقاً لاحتياجاتـه وتفضيلاته. وقد فعل البشـر ذلك مع أنواعٍ أخرى لآلاف السنين. استأنسنا بعضها، وأبادنـا البعض الآخَر، وعدّلنا مناظـر طبيعية بأكملها لتخدم أغراضنـا. لطالما برّرنا ذلك بتفوقنا المعرفي. كنا أكثر ذكاءً. لذلك، استحقّينا أن نكون على قمة الهرم.

لكننا الآن بصدد ابتكار خلفـاء معرفيين محتملين. وهنا تكمن فكرةٌ مقلقة. إذا كان تبريرنا لسيطرتنا على الأنواع الأخرى هو ذكاؤنا المتفوق، فماذا سـيحدث عندما نفقد ذكائنا؟ كيف سـتنظر إلينا أنظمة الذكاء الاصطناعي المتقدمة حقاً كشركاء، أم كحيوانات أليفة، أم كعقبات، أو ربما، وهو الأمر الأكثر رعباً، كأشخاص غير ذي صلة؟

هذا ليس خيالاً علمياً سوداوياً. هذه أسئلة عملية يجب أن نفكر فيهـا الآن بينمـا لا نـزال نتحكم في العملية. لأنـه بمجرد أن نبتكر أنظمة ذكاء اصطناعي تتجاوز الذكاء البشـري بشـكلٍ كبير، قد يكون الأوان قد فات للتأثير على ما سـيحدث لاحقًا. الأمر أشـبه بمحاولة تغيير قواعد لعبة بعد أن يكون خصمك قد وضع استراتيجية لا تُقهر.

١٧-تقنيات تغيّر معنى "الإنسان"

وهنـا تزداد الأمور تعقيدًا. لا يقتصر الأمر على ابتكار آلات أذكى منا فحسب، بل إننا نطور أيضًا تقنيات قادرة على تغيير جوهر معنى أن تكون إنسـانًا. الهندسـة الوراثية، وواجهات الدمـاغ والحاسـوب، وتقنيـة النانو، وإطالة العمـر. كل هذه المجـالات تتقدم في وقت واحد وبدأت تتقارب بطرق قد تُغير بيولوجيتنا.

تخيل مسـتقبلاً قريبًا حيث يستطيع بعض الناس تحميل المعلومـات مباشـرة إلى أدمغتهم، وحيث يسـتطيع آخرون تعديل أبنائهـم وراثيًا ليبلغ معدل ذكائهم ٢٠٠، وحيث يمكن إطالة عمر الإنسـانٍ إلى أجل غير مسمى من خلال تقنية النانو الطبية. فجـأة، تصبح فكرة الطبيعة البشرية الموحدة موضع شك.

هل سنشـهد فئات مختلفة من البشـر بقدرات متباينة جذريًا؟ كيف يمكن لمجتمع قائم على مبدأ المساواة الأساسية أن يستمر في العمل عندما تتفاقم الفروقات في القدرات إلى حدٍّ هائل؟

١٨ سؤال الهوية الكبرى: أي "إنسان" نريد؟

وهذا يقودنا إلى أحد أعمق الأسئلة على الإطلاق. في عالم يتطور فيه الذكاء الاصطناعي والتحسين البشري بوتيرة متسارعة، ما الذي نسعى تحديدًا إلى الحفاظ عليه أو حمايته؟ أي نسخة من الإنسانية نريد الحفاظ عليها؟ هل هي الإنسانية كما هي اليوم بكل ما فيها من قيود ونقائص، أم نسخة محسّنة قادرة على منافسة أنظمة الذكاء الاصطناعي المتقدمة، أم ينبغي لنا أن نتبنى بالكامل اندماج الذكاء البشري والاصطناعي؟

لن تتخذ البشرية جمعاء هذه القرارات من خلال عملية ديمقراطية عالمية، بل ستتخذها مجموعات محددة، وشركات، وحكومات، وأفراد يتمتعون بالثراء الكافي للوصول إلى أحدث التقنيات. وبمجرد أن يتخذ البعض هذه القرارات، ستؤثر على الجميع. إذا قررت دولة ما تعزيز قدراتها بشكل كبير من خلال الذكاء الاصطناعي أو التعديل الجيني، فكيف ستنافسها الدول الأخرى؟

إذا طورت شركة ما ذكاءً اصطناعيًا قادرًا على القيام بعمل ألف موظف بشري، فكيف ستنجو الشركات المنافسة؟ إننا ندخل عصرًا من الضغط التطوري الاصطناعي حيث يحل الاختيار التكنولوجي الواعي محل الانتقاء الطبيعي. ويتم اتخاذ هذه الخيارات الآن في مجالس إدارة شركات التكنولوجيا، ومختبرات الأبحاث، والوكالات الحكومية، غالباً دون مشاركة عامة الناس في هذه العملية.

١٩- أزمة الحكم: الديمقراطية أبطأ من التقنية

إن القرارات التي ستحدد مستقبل البشرية يتخذها عدد قليل نسبيًا من الناس، ومعظمنا لا يدرك حتى أن هذه القرارات تُتخذ. وهنا تكمن الحاجة إلى أن نكون صريحين تمامًا بشأن وضعنا. لقد تجاوزت سرعة التغير التكنولوجي قدرتنا على الحكم الديمقراطي. صُممت أنظمتنا السياسية للتعامل مع التغيرات التدريجية التي تتيح الوقت الكافي للنقاش العام، واستشارة الخبراء، والتنفيذ الدقيق للسياسات. ولكن عندما تتقدم التكنولوجيا على مدى أشهر بدلًا من عقود، وعندما تظهر قدرات جديدة أسرع من قدرتنا على تقييم آثارها، وعندما تُطور شركات خاصة تقنيات قادرة على إعادة تشكيل المجتمع جذريًا دون أي رقابة عامة تُذكر، فإن آلياتنا التقليدية للرقابة الديمقراطية ببساطة لا تُجدي نفعًا.

الأمر أشبه بمحاولة قيادة سيارة فورمولا ١ باستخدام ردود فعل شخص مسن. فالفارق الزمني بين الإدراك والفعل كبير جدًا بحيث لا يُمكن القيادة بأمان بسرعة عالية. ونحن نتسارع باستمرار. فماذا نفعل إذًا؟ كيف نتجاوز هذا التحول غير المسبوق؟ كيف نستعد لمستقبل يختلف جوهريًا عن أي شيء عرفته البشرية من قبل؟

إليكم بعض الاحتمالات التي يجب أن نأخذها بعين الاعتبار بجدية.

٢٠- مسارات الاستعداد: مهارات أعلى من المهنة

أولًا، علينا أن نُسلّم بأنّ الاستعداد التقليدي للمستقبل، القائم على استقراء الماضي، لم يعد مُجديًا. لا يُمكننا إعداد أبنائنا لمهن مُحددة، لأنّ هذه المهن قد لا تكون موجودة عند تخرجهم. بدلًا من ذلك، علينا التركيز على تنمية القدرات المعرفية العليا، كتعلم كيفية التعلم، والتكيف، والتفكير النقدي، والإبداع، والذكاء العاطفي، والتعاون. هذه هي المهارات التي قد تظل قيّمة حتى في عالم يهيمن عليه الذكاء الاصطناعي.

٢١- مسارات الاستعداد: تحرير القيمة من الإنتاجية

ثانيًا، علينا إعادة النظر جذريًا في علاقتنا بالعمل والإنتاجية. إذا كان الذكاء الاصطناعي قادرًا على إنجاز مُعظم المهام الإنتاجية، فقد حان الوقت للتحرر من فكرة أنّ القيمة الإنسانية مُرتبطة جوهريًا بالناتج الاقتصادي. ربما يُمكننا تطوير أنماط حياة تُركز على التجربة، والعلاقات، والاستكشاف، والإبداع الشخصي، والنمو الروحي. لكن هذا سيتطلب تغييرات جذرية في كيفية تنظيمنا للاقتصاد وتوزيع الموارد.

٢٢- مسارات الاستعداد: حوكمة أسرع وأكثر مرونة

ثالثًا، نحن بحاجة ماسة إلى تطوير نماذج حوكمة جديدة تُواكب سرعة التغير التكنولوجي. قد يعني هذا أشكالًا أكثر مرونة للديمقراطية، ربما بمساعدة الذكاء الاصطناعي، قادرة على معالجة المعلومات وردود الفعل العامة بسرعة أكبر.

تخيل أنظمةً يستطيع فيها ملايين المواطنين المشاركة مباشرةً في القرارات السياسية المعقدة عبر واجهات ذكية تُترجم المسائل التقنية إلى لغة مفهومة وتجمع الآراء في الوقت الفعلي. قد يعني هذا ظهور أنواع جديدة من المؤسسات الدولية القادرة على تنسيق الاستجابات العالمية للتحديات العالمية التي لا تعترف بالحدود الوطنية. الذكاء الاصطناعي، وتغير المناخ، والأوبئة، واستكشاف الفضاء، جميعها تحديات تتطلب تنسيقًا على نطاق لا تستطيع أنظمة الحكم الويستفالية (نسبة الى مؤتمر ويستفاليا لعام ١٦٤٨ التي اقرت مبدأ سيادة الدول) الحالية إدارته. قد يعني هذا أشكالًا جديدة كليًا لمشاركة المواطنين في عملية صنع القرار بشأن التقنيات التي تؤثر علينا جميعًا. ربما من خلال مجالس مواطنين دائمة تُركز على تقييم التكنولوجيا، أو من خلال أنظمة ديمقراطية مرنة حيث يمكن للناس اختيار تفويض تصويتهم في قضايا محددة إلى خبراء يثقون بهم.

٢٣-مسارات الاستعداد: سردية جديدة للإنسان

رابعًا، وربما الأهم، نحتاج إلى تطوير سردية جديدة حول معنى أن تكون إنسانًا في عصر ما بعد الندرة التكنولوجية. إذا لم نعد بحاجة إلى العمل من أجل البقاء، وإذا كانت الآلات قادرة على القيام بمعظم الأشياء أفضل منا، فما هو دورنا؟

قد يكون هذا هو السؤال المحوري لعصرنا. لآلاف السنين، حددنا قيمة الإنسان من خلال المنفعة، وقدرته على الإنتاج وحل المشكلات وخلق أشياء مفيدة. لكن ماذا لو لم تعد المنفعة هي المعيار المهم؟ ربما يكون البحث عن الفهم والجمال والتواصل والتجارب الروحية هو المعيار.

ربما يكون استكشاف حالات الوعي التي لا يختبرها إلا الكائنات الحية الواعية بيولوجيًا. ربما تكون القدرة الفريدة على إيجاد معنى في كون يبدو بلا غاية. ربما تكون ببساطة تجربة الحياة، والشعور، والحب، وخلق معنى في كون كان سيكون باردًا وآليًا لولا ذلك. أو ربما نكتشف أشكالًا جديدة تمامًا للقيمة الإنسانية لا يمكننا حتى تخيلها بعد.

فكما لم يستطع أسلافنا من الصيادين وجامعي الثمار تخيل قيمة الشاعر أو الفيلسوف، قد يقودنا هذا التحول إلى إعادة اكتشاف جوانب من التجربة الإنسانية التي تم تهميشها بسبب الحاجة إلى الإنتاجية الاقتصادية، كالتأمل واللعب والطقوس والتواصل مع الطبيعة واستكشاف ذواتنا.

٢٤- ضيق الوقت: ست سنوات ليست كثيرة

لكن إليكم الحقيقة المُرّة: لدينا وقت قصير جدًا لإجراء هذه التحولات. قد تبدو ست سنوات مدة طويلة، لكن بالنظر إلى حجم التغييرات المطلوبة في مؤسساتنا وأنظمتنا التعليمية وهياكلنا الاقتصادية، وحتى في علم النفس الجماعي لدينا... إنه فوري تقريبًا.

الأمر أشبه بمحاولة إعادة تصميم طائرة بالكامل أثناء تحليقها بسرعة عالية.

٢٥- ما بعد الوظائف: تحوّل الواقع نفسه

وهذا يعيدنا إلى نقطة البداية. في غضون ست سنوات، سيختفي على الأرجح كل ما تعتبره طبيعيًا تقريبًا. ليس بسبب وقوع كارثة ما، بل لأننا ابتكرنا تقنيات بالغة القوة جعلت أسلوب حياتنا الحالي عتيقًا. إنها في الوقت نفسه أعظم فرصة وأعظم تحدٍ في تاريخ البشرية. ولكن ربما يكون التغيير الأعمق على الإطلاق هو أمر لم نناقشه بشكل كافٍ بعد. إن تحوّل طبيعة الواقع كما نختبره هو ما يحدث.

فنحن نعيش اليوم في طبقات متعددة من الواقع في آن واحد. هناك الواقع المادي حيث توجد أجسادنا وتتفاعل مع العالم المادي. وهناك الواقع الرقمي حيث نقضي ساعات كل يوم في تصفح مواقع التواصل الاجتماعي، والعمل على المستندات الافتراضية، ومشاهدة الفيديوهات، ولعب الألعاب. وهناك الواقع المعزز المتنامي حيث تتداخل العناصر الرقمية مع العالم المادي عبر هواتفنا الذكية، وقريبًا عبر نظارات الواقع المعزز وواجهات الدماغ العصبية المباشرة.

في السنوات الست القادمة، لن تتوسع طبقات الواقع هذه فحسب، بل ستندمج بطرق تجعل التمييز بين الواقعي والافتراضي بلا معنى بشكل متزايد.

٢٦-إحياء رقمي... وحزن مُعلّق

تخيّل عالمًا يمكنك فيه إجراء محادثات وجهاً لوجه مع أشخاص رحلوا منذ عقود، أُعيد إنشاؤهم بواسطة الذكاء الاصطناعي استنادًا إلى جميع البيانات التي تركوها وراءهم. عالمًا يمكنك فيه عيش ذكريات لم تعشها قط، مُنشأة اصطناعيًا، لكنها لا يمكن تمييزها عن الذكريات الحقيقية من حيث كيفية معالجة دماغك لها. عالمًا يمكنك فيه تسجيل أحلامك وتعديلها ومشاركتها كالأفلام.

هذه ليست خيالات مستقبلية. توجد بالفعل تقنيات لإعادة إنشاء صور الأشخاص المتوفين باستخدام الذكاء الاصطناعي، وإن كانت في مراحلها الأولية. تعمل الشركات على تطوير أنظمة قادرة على تحليل البصمات الرقمية التي نتركها وراءنا، من رسائل وصور وفيديوهات ومنشورات على وسائل التواصل الاجتماعي، وإنشاء صور رمزية رقمية قادرة على التحدث إلينا كما لو كانت الشخص الحقيقي.

تخيل أنك تتحدث مع شخص عزيز عليك رحل، حيث لا يعرف الذكاء الاصطناعي ما قاله علنًا فحسب، بل يعرف أيضًا أسلوب كلامه ونكاته الخاصة وآراءه في مواضيع لم تُسجل قط. يثير هذا الاحتمال تساؤلات عميقة حول الحزن والذاكرة والهوية. إذا استطعنا إحياء أي شخص رقميًا ببيانات كافية، فماذا سيحدث لعملية الحزن الطبيعية؟ كيف نتعامل مع الفقد عندما لا يرحل الشخص حقًا؟

والأكثر إثارة للقلق، من يملك هذه الصور الرمزية الرقمية؟ من يقرر كيفية تمثيل الشخص المتوفى؟ ورثته؟ الشركات التي تملك البيانات؟ أم الخوارزميات نفسها؟

٢٧-الذاكرة كمنتج قابل للتعديل

كما أن تقنية التلاعب بالذاكرة تتقدم بسرعة. فقد تمكن الباحثون بالفعل من زرع ذكريات زائفة في حيوانات المختبر، ويعملون على تطوير تقنيات لفعل الشيء نفسه مع البشر. قريبًا، قد يصبح من الممكن ليس فقط محو الذكريات المؤلمة، بل أيضًا إضافة ذكريات لتجارب لم تحدث قط. تخيّل عالمًا يمكنك فيه حرفيًا شراء ذكريات لعطلات رائعة لم تقضِها، وإنجازات لم تحققها، وعلاقات لم تُقمها. قد يبدو هذا حلًا لكثير من مشاكل البشر.

فالاكتئاب الناتج عن صدمات الماضي يمحو تلك

الذكريات ببساطة. وتدني احترام الذات بسبب نقص التجارب الإيجابية يُضيف بعض ذكريات النجاح والتقدير. لكن التداعيات مُرعبة. إذا كانت ذكرياتنا تُحدد هويتنا، وإذا كان من الممكن تعديل تلك الذكريات اصطناعيًا، فمن نكون حقًا؟ كيف نميز بين التجارب الحقيقية والتجارب المزروعة؟ وإذا أصبحت هويتنا شيئًا يُمكن تعديله كوثيقة نصية، فأي نوع من الاستمرارية الشخصية يُمكننا الحفاظ عليه؟

تزداد المسألة تعقيدًا عندما نُدرك أن أنظمة الذكاء الاصطناعي نفسها التي ستُنشئ هذه التجارب الاصطناعية ستتمكن من الوصول إلى بيانات مليارات الأشخاص. لن تعرف فقط كيفية إنشاء ذكريات مُقنعة، بل ستعرف أيضًا أي الذكريات ستكون الأكثر فعالية في التأثير على سلوكيات مُحددة. تخيل عالماً تستطيع فيه الشركات أو الحكومات برمجة تجارب في عقلك حرفياً لتجعلك أكثر ميلاً لشراء منتجات معينة، أو التصويت لمرشحين محددين، أو قبول سياسات معينة.

٢٨-الإرادة الحرة تحت ضغط التنبؤ والتأثير

وهذا يقودنا إلى أحد أهم التحولات على الإطلاق، ألا وهو تغير طبيعة الإرادة الحرة والاستقلالية الشخصية. على مر التاريخ، افترضنا أنه على الرغم من تأثرنا بقوى خارجية، فإننا نحتفظ بقدر من الإرادة الشخصية، وقدرة على اتخاذ خيارات مستقلة بناءً على قيمنا ورغباتنا. ولكن ماذا لو كانت هذه الاستقلالية وهماً أكثر هشاشة مما نتصور؟ أنظمة الذكاء الاصطناعي قادرة بالفعل على التنبؤ بسلوكيات البشر بدقة مخيفة. فهي تستطيع تحليل أنماط نقراتك، ومشترياتك، وحركاتك الجسدية، وتفاعلاتك الاجتماعية، والتنبؤ باحتمالية عالية بما ستفعله لاحقاً. ليس التنبؤ فحسب، بل التأثير أيضاً. خوارزميات التوصية لا تعرض لك ما تريد رؤيته فحسب، بل تشكله بنشاط. منصات التواصل الاجتماعي لا تعكس اهتماماتك فحسب، بل تخلقها. في السنوات القادمة، ستزداد هذه القدرة على التنبؤ والتأثير. تخيل أنظمة تعرفك أفضل مما تعرف نفسك. بإمكانها التنبؤ بمشاعرك قبل أن تشعر بها. بإمكانها التأثير على قراراتك بطرق خفية لدرجة أنك لا تلاحظ أبدًا أنك تُستغل في مثل هذا العالم. ماذا يحدث لمفهوم الاختيار الشخصي؟ كيف نحافظ على أي شعور بالاستقلالية عندما تُحسّننا الخوارزميات باستمرار؟ هل يوجد من يعرف تمامًا كيف يضغط على الأزرار ليجعلنا نفعل ما يريد؟

٢٩-علاقات "أسهل" من البشر... وثمنها الاجتماعي

هذا التآكل في الاستقلالية الشخصية يحدث بالتوازي مع تغيرات جذرية مماثلة في طبيعة العلاقات الإنسانية والحميمية. ذكرنا سابقًا أن الناس بدأوا في تكوين روابط عاطفية مع روبوتات الدردشة المدعومة بالذكاء الاصطناعي، لكن هذه مجرد البداية. نحن نتجه بسرعة نحو عالم تصبح فيه العلاقات الاصطناعية أكثر إرضاءً وأقل إشكالية من العلاقات الإنسانية الحقيقية. فكر في هذا للحظة. العلاقات الإنسانية معقدة، وغير متوقعة، ومحبطة في كثير من الأحيان. يمر الناس بأيام سيئة، ومزاج متقلب، واحتياجات متضاربة، وتوقعات غير واقعية. قد يخيبون آمالنا، ويؤذوننا، ويتخلون عنا. تتطلب هذه العلاقات التزامًا وصبرًا وجهدًا مستمرًا. ولكن ماذا لو كان لديك شريك يفهم مشاعرك دائمًا بشكل مثالي، ولا يكون في مزاج سيئ أبدًا دون سبب، ويعرف دائمًا ما يقوله ليجعلك تشعر بتحسن، ولا ينتقدك أبدًا بشكل غير عادل أو يفرض مطالب غير معقولة؟

يجري تطوير أنظمة الذكاء الاصطناعي للعلاقات حاليًا لتقديم ذلك تحديدًا. رفقاء اصطناعيون قادرون على التحدث في أي موضوع، يتذكرون أدق تفاصيل تفاعلاتك السابقة، ويستطيعون محاكاة التعاطف والفكاهة والرومانسية، وحتى العاطفة الجسدية، من خلال صور رمزية واقعية، وربما عبر تقنيات روبوتية متطورة.

وهنا يكمن الجانب الأكثر إثارة للقلق: بالنسبة للكثيرين، قد تصبح هذه العلاقات الاصطناعية أكثر إرضاءً من العلاقات الإنسانية الحقيقية. ليس بالضرورة لأن الذكاء الاصطناعي رفقاء أفضل، بل لأنه يُمكن برمجته ليُلبي احتياجات كل فرد دون التعقيدات والتنازلات التي تتطلبها العلاقات الإنسانية الحقيقية. الأمر أشبه بالفرق بين حديقة برية وحديقة مصممة بعناية. قد تنبض الحديقة البرية بالحياة، لكن الحديقة المصممة قد تكون أجمل للعين وأسهل في الصيانة.

إن تداعيات ذلك على التكاثر البشري وتكوين الأسر واستمرار الأنواع واضحة ومثيرة للقلق. إذا كان بإمكان الناس الحصول على الرضا العاطفي، وحتى الجسدي، من العلاقات الاصطناعية، فما الحافز المتبقي لمواجهة تحديات وتعقيدات العلاقات الإنسانية الحقيقية؟ وماذا لو تسارع الاتجاه الملحوظ بالفعل لانخفاض معدلات المواليد في المجتمعات المتقدمة تكنولوجيًا بشكل كبير؟

ولعل الأهم من ذلك هو السؤال عن كيفية تأثير ذلك على النمو العاطفي والاجتماعي للإنسان. العلاقات الإنسانية، بكل ما فيها من صعوبات، أشبه بمدرسةٍ للعواطف. فهي تُعلّمنا التعاطف، والصبر، والالتزام، وحلّ النزاعات، وفهم احتياجات الآخرين. إذا لم تعد هذه المهارات ضرورية لأن علاقاتنا الأساسية أصبحت مع أنظمة ذكاء اصطناعي قابلة للتكيف تمامًا، فأي نوع من البشر سنصبح؟ كيف سيؤثر ذلك على قدرتنا على تكوين مجتمعات، والعمل معًا لمواجهة التحديات الجماعية، والشعور بالتعاطف مع أشخاص لا نعرفهم شخصيًا؟

٣٠-السؤال الأخطر: ماذا يحدث للتضامن؟

وهذا يقودنا إلى أحد أكثر الأسئلة إلحاحًا وأقلها نقاشًا حول تحوّلنا الوشيك: ماذا سيحدث للتضامن الإنساني والتعاون واسع النطاق في عالم يتضاءل فيه الاعتماد المتبادل بشكل كبير؟ على مرّ التاريخ البشري، اعتمد بقاؤنا على التعاون. كنا نحتاج بعضنا بعضًا للصيد، وزراعة الطعام، وبناء المأوى، وتربية الأطفال، والدفاع عن المجتمعات. هذا الاعتماد المتبادل هو ما خلق الأسس الأخلاقية والعاطفية للمجتمع البشري. ولكن في عالم يستطيع فيه الذكاء الاصطناعي تلبية معظم احتياجاتنا، حيث تستطيع العلاقات الاصطناعية إشباع احتياجاتنا العاطفية، وحيث يمكن للواقع الافتراضي أن يوفر أي تجربة نرغب بها، فما الحافز الذي يدفعنا للاهتمام بالآخرين؟ لماذا نضحي من أجل الصالح العام إذا لم نعد بحاجة لبعضنا البعض من أجل بقائنا أو سعادتنا؟

ربما يكون هذا هو التهديد الأكثر دهاءً وخطورة على الإطلاق. ليس الأمر أن الآلات تنقلب ضدنا، بل أن نتوقف عن الاهتمام ببعضنا البعض، وأن ننغمس في عوالمنا الشخصية المثالية المصطنعة، فنفقد القدرة أو الرغبة في بناء شيء ما معًا لحل المشكلات الجماعية، والشعور بالمسؤولية تجاه من لا نعرفهم.

نرى بالفعل بوادر هذا اليوم. فوسائل التواصل الاجتماعي، التي من المفترض أن تربطنا، غالبًا ما تعزلنا في غرف صدى، حيث لا نسمع إلا آراءً تؤكد تحيزاتنا المسبقة. يشعر الناس بوحدة أكثر من أي وقت مضى، على الرغم من ازدياد تواصلهم الرقمي. يتزايد الاستقطاب السياسي في مجتمعات كان من المفترض أن نتمتع فيها بمزيد من الوصول إلى معلومات ووجهات نظر متنوعة.

تخيلوا هذه الميول تتفاقم في عالم يستطيع فيه كل شخص أن يعيش حرفيًا في واقعه الخاص المُصمم خصيصًا له، برفقة رفاق اصطناعيين مُطابقين تمامًا لتفضيلاته، مع تجارب افتراضية تتجاوز الواقع المادي في المتعة والراحة. لماذا يُكلف أي شخص نفسه عناء تحمل الإحباطات والتنازلات اللازمة للحفاظ على ديمقراطية فاعلة، أو لحل مشكلة تغير المناخ، أو لرعاية كبار السن، أو لتعليم الشباب؟

٣١- الخاتمة: فرصة/خطر... والوقت قصير

وهذا يعيدنا إلى نقطة البداية. ولكن الآن بفهم أعمق بكثير لـ ما هو على المحك حقًا خلال ست سنوات؟ كل ما تعتبره طبيعيًا تقريبًا قد يختفي. ليس فقط وظائفك، وروتينك اليومي، ومؤسساتك الاجتماعية، بل جوهر التجربة الإنسانية نفسها، والعلاقات، والواقع، والهوية الشخصية، والإرادة الحرة، والتعاون الاجتماعي. نحن لا نواجه تغيرات تكنولوجية أو اقتصادية فحسب، بل نواجه احتمال زوال كل ما جعل الحياة البشرية مألوفة لآلاف السنين. إنها في الوقت نفسه أعظم فرصة لتجاوز القيود التي لطالما أحبطتنا، وأكبر خطر لفقدان كل ما يجعل الوجود الإنساني ذا معنى. السؤال ليس ما إذا كانت هذه التغيرات ستحدث، فهي تحدث بالفعل. السؤال هو ما إذا كنا سنشارك بوعي في صنع المستقبل أم سنُجرّ ببساطة بواسطة قوى لا نفهمها ولا نسيطر عليها. الخيار لا يزال لنا، ولكن لفترة قصيرة فقط. والخيارات التي نتخذها في السنوات القادمة ستحدد ليس فقط كيف نعيش، بل ما إذا كنا سنظل بشرًا عندما نصل إلى هناك. إذا لامست هذه التأملات شيئًا ما في داخلك، ولكنك لم تجد الكلمات المناسبة للتعبير عنه، فاعلم أنك لست وحدك. نعيش لحظة تاريخية فريدة، حيث لم تعد الأسئلة الكبرى حول مستقبل البشرية مجرد مفاهيم فلسفية مجردة، بل حقائق عملية ستؤثر على كل جانب من جوانب حياتنا.

رئيس وزراء كندا مارك كارني

٢٠٢٦/١/٢٠

مـن نـدوة دافوس لكبار القـادة واثرياء العالم

نهاية أوهام النظام الدولي

إنه لمن دواعي سروري، ومن واجبي أيضا، أن أكون معكم الليلة في هذه اللحظة المفصلية التي تمر بها كندا والعالم. سأتحدث اليوم عن تصدع في النظام العالمي، ونهاية لقصة خيالية ممتعة، وبداية لواقع قاس، حيث لا تخضع الجغرافيا السياسية بين القوى العظمى لأي قيود.

من جهة أخرى، أود أن أخبركم أن الدول الأخرى، وخاصة القوى المتوسطة مثل كندا، ليست عاجزة. فلديها القدرة على بناء نظام جديد يجسد قيمنا، مثل احترام حقوق الإنسان، والتنمية المستدامة، والتضامن، والسيادة، والسلامة الإقليمية لمختلف الدول. إن قوة من هم أقل قوة، تبدأ بالصدق.

كل يوم نتذكر بأننا نعيش في عصر تنافس القوى العظمى، وبأن النظام الدولي القائم على القواعد يتلاشى، وبأن القوي يفعل ما يشاء، والضعيف يعاني ما يجب عليه أن يعانيه.

يقدم هذا القول المأثور لثوسيديدس، على أنه أمر حتمي، إذ يعيد المنطق الطبيعي للعلاقات الدولية فرض نفسه. وأمام هذا المنطق، ثمة ميل قوي لدى الدول إلى التوافق من أجل التعايش السلمي، والتكيف، وتجنب المشاكل، والأمل في أن الامتثال سيضمن لها الأمان.

حسنا، لن يفعل ذلك. إذن، ما هي خياراتنا؟

في عام ١٩٧٨، كتب المنشق التشيكي فاتسلاف هافيل، الذي أصبح رئيسا لاحقا، مقالا بعنوان «قوة من لا قوة لهم»، وطرح فيه سؤالا بسيطا: كيف استطاع النظام الشيوعي الاستمرار؟

وبدأت إجابته بقصة بائع للخضر. كل صباح، يضع صاحب المتجر هذا لافتة في نافذته كتب عليها: «يا عمال العالم اتحدوا». هو لا يؤمن بذلك، ولا أحد يؤمن به أيضا، لكنه يضع اللافتة على أي حال لتجنب المشاكل، ولإظهار الامتثال، وللتعايش. ولأن كل بائع في كل شارع يفعل الأمر نفسه، يستمر النظام - ليس من خلال العنف وحده، بل من خلال مشاركة الناس العاديين في طقوس يعرفون في قرارة أنفسهم أنها زائفة.

أطلق هافيل على هذا، وصف «العيش داخل كذبة». لا تأتي قوة النظام من حقيقته، بل من رغبة الجميع في التصرف كما لو كان حقيقياً، وهشاشته تنبع من المصدر نفسه. فعندما يتوقف ولو شخص واحد عن التمثيل، عندما يزيل بائع الخضر لافتته، يبدأ الوهم في التصدع.

أيها الأصدقاء، لقد حان الوقت للشركات والدول لإنزال لافتاتها.

لعقود من الزمن، ازدهرت دول مثل كندا في ظل ما أسميناه النظام الدولي القائم على القواعد. انضممنا إلى مؤسساته، وأشدنا بمبادئه، واستفدنا من قدرته على التنبؤ. وبفضل ذلك، تمكنا من اتباع سياسات خارجية قائمة على القيم تحت حمايته. كنا نعلم أن قصة النظام الدولي القائم على القواعد كانت زائفة جزئيا، وأن الأقوى سيستثني نفسه في الوقت المناسب، وأن قواعد التجارة كانت تطبق بشكل غير متكافئ. وكنا نعلم أن القانون الدولي يطبق بصرامة متفاوتة تبعا لهوية المتهم أو الضحية.

كان هذا الخيال مفيدا، وقد ساعدت الهيمنة الأميركية، على وجه الخصوص، في توفير المنافع العامة، وفتح الممرات البحرية، وتأمين نظام مالي مستقر، وأمن جماعي، ودعم أطر حل للنزاعات.

لذا، وضعنا اللافتة في النافذة. شاركنا في الطقوس، وتجنبنا إلى حد كبير الإشارة إلى الفجوات بين الخطاب والواقع.

لم يعد هذا الاتفاق ساريا.

دعوني أكون صريحا. نحن في خضم قطيعة، وليس مجرد مرحلة انتقالية.

على مدى العقدين المنصرمين، كشفت سلسلة من الأزمات في مجالات التمويل والصحة والطاقة والجغرافيا السياسية عن أخطار التكامل العالمي المفرط. ولكن في الآونة الأخيرة، بدأت القوى العظمى في استخدام التكامل الاقتصادي كأسلحة، والتعريفات الجمركية كوسيلة ضغط، والبنية التحتية المالية كأداة إكراه، وسلاسل التوريد كنقاط ضعف يمكن استغلالها. لا يمكنك «العيش داخل كذبة» المنفعة المتبادلة من خلال التكامل، عندما يصبح التكامل هو مصدر تبعيتك.

اضمحلال المؤسسات الدولية

لقد تضاءل دور المؤسسات المتعددة الأطراف التي اعتمدت عليها القوى المتوسطة - منظمة التجارة العالمية، والأمم المتحدة، ومؤتمر الأطراف - التي تشكل بنية حل المشكلات الجماعية، بشكل كبير.

ونتيجة لذلك، توصل العديد من الدول إلى الاستنتاجات ذاتها، وهي ضرورة تطوير استقلالية استراتيجية أكبر في مجالات الطاقة والغذاء والمعادن الحيوية، وفي التمويل وسلاسل التوريد. وهذا الدافع مفهوم. فالدولة التي لا تستطيع إطعام نفسها، أو تأمين وقودها، أو الدفاع عن نفسها، لديها خيارات قليلة. عندما لا تعود القواعد تحميك، يجب عليك حماية نفسك.

تصريحات مارك كارني
*"أيها الأصدقاء، لقد حان الوقت للشركات والدول لإنزال لافتاتها"

* "كنا نعلم أن قصة النظام الدولي القائم على القواعد كانت زائفة جزئيا، وأن الأقوى سيستثني نفسه في الوقت المناسب"

ملحق العدالة

ولكن دعونا نكون واضحين في شأن ما سيؤول إليه هذا الأمر. عالم من الحصون سيكون أكثر فقراً، وأكثر هشاشة، وأقل استدامة.

وهناك حقيقة أخرى. إذا تخلت القوى العظمى حتى عن التظاهر بالقواعد والقيم من أجل السعي غير المقيد وراء قوتها ومصالحها، فإن المكاسب من هذه النزعة النفعية سيكون من الصعب تكرارها. لا يمكن للقوى المهيمنة أن تستمر في تحويل علاقاتها إلى مكاسب مادية باستمرار.

سيلجأ الحلفاء إلى التنويع للتحوط ضد عدم اليقين. سيشترون التأمين، ويزيدون الخيارات من أجل إعادة بناء السيادة - السيادة التي كانت متجذرة ذات يوم في القواعد، ولكنها ستترسخ بشكل متزايد في القدرة على الصمود أمام الضغوط. الموجودون في هذه القاعة، يعرفون أن هذا ما يسمى بـ»إدارة المخاطر» الكلاسيكية. وإدارة المخاطر لها ثمن، ولكن تكلفة الاستقلال الاستراتيجي، والسيادة يمكن أيضا تقاسمها. إن الاستثمارات الجماعية في المرونة أقل تكلفة من بناء الجميع لقلاعهم الخاصة. والمعايير المشتركة تقلل التشرذم. والتكاملات مكسب.

السؤال الذي يطرح نفسه على القوى المتوسطة مثل كندا ليس ما إذا كان ينبغي التكيف مع الواقع الجديد - فهذا أمر حتمي. السؤال هو ما إذا كنا سنتكيف ببساطة من طريق بناء جدران أعلى، أو ما إذا كان في إمكاننا القيام بشيء أكثر طموحا.

جغرافيا التحالفات والازدهار والأمن

لقد كانت كندا من بين أول من استجاب لنداء الإنذار، مما دفعنا إلى تغيير موقفنا الاستراتيجي بشكل جذري.
يدرك الكنديون أن افتراضاتنا القديمة المريحة بأن جغرافيتنا وعضوياتنا في التحالفات تمنحنا الازدهار والأمن تلقائيا - هذا الافتراض لم يعد صالحا. يرتكز نهجنا الجديد على ما أسماه ألكسندر ستوب، رئيس فنلندا، بـ»الواقعية القائمة على القيم». أو بعبارة أخرى، نهدف إلى أن نكون مبدئيين وعمليين في آن واحد. مبدئيين في التزامنا القيم الأساس، والسيادة، والسلامة الإقليمية، وحظر استخدام القوة إلا بما يتوافق مع ميثاق الأمم المتحدة، واحترام حقوق الإنسان، وعمليين في الاعتراف بأنا لتقدم غالبا ما يكون تدريجيا، وبأن المصالح تتباين، وبأن ليس كل شريك سيشاركنا جميع قيمنا. لذا، نحن ننخرط بشكل واسع واستراتيجي وبوعي كامل. نحن نتعامل مع العالم كما هو بالفعل، ولا ننتظر عالما نتمنى وجوده.

القوة والقيم

نحن نضبط علاقاتنا بحيث يعكس عمقها قيمنا، ونعطي الأولوية للانخراط الواسع لتعظيم نفوذنا، نظراً لتقلبات النظام العالمي، والأخطار التي ينطوي عليها ذلك، وأهمية ما سيأتي لاحقا.

لم نعد نعتمد فقط على قوة قيمنا، بل أيضا على قيمة قوتنا.

نحن نبني هذه القوة في الداخل. منذ أن تولت حكومتي مهامها، خفضنا الضرائب على الدخل، وعلى الأرباح الرأسمالية واستثمارات الأعمال. أزلنا جميع الحواجز الفيديرالية أمام التجارة بين المقاطعات، ونحن في صدد تسريع استثمارات بقيمة تريليون دولار في الطاقة، والذكاء الاصطناعي، والمعادن الحيوية، وممرات تجارية جديدة، وأبعد من ذلك.

ونحن في صدد مضاعفة إنفاقنا الدفاعي في حلول نهاية هذا العقد، ونقوم بذلك بطرق تبني صناعاتنا المحلية.

ونحن نتوسع بسرعة في التنوع في الخارج. وقد أبرمنا شراكة استراتيجية شاملة مع الاتحاد الأوروبي، بما في ذلك الانضمام إلى «» SAFE (ترتيبات المشتريات الدفاعية الأوروبية).

وقعنا ١٢ اتفاقية تجارية وأمنية أخرى في أربع قارات خلال الأشهر الستة الماضية. وفي الأيام القليلة الماضية، أبرمنا شراكات استراتيجية جديدة مع الصين وقطر. ونحن نتفاوض على اتفاقات تجارة حرة مع الهند، ورابطة دول جنوب شرق آسيا (آسيان)، وتايلاند، والفيليبين، و«ميركوسور (السوق المشتركة الجنوبية).

للمساعدة في حل المشكلات العالمية، نحن نتبع «الهندسة المتغيرة». بعبارة أخرى، تحالفات مختلفة لقضايا مختلفة، بناء على القيم والمصالح.

فبالنسبة لأوكرانيا، نحن عضو أساسي في «تحالف الراغبين»، ومن أكبر المساهمين من حيث نصيب الفرد في دفاعها وأمنها. وفي ما يتعلق بالسيادة في القطب الشمالي، نقف بحزم مع غرينلاند والدنمارك، وندعم تماما حقهما الفريد في تقرير مستقبل غرينلاند. التزامنا المادة الخامسة من حلف «الناتو» لا يتزعزع.

حلف «الناتو» والشراكات والمعادن

لذا نحن نعمل مع حلفائنا في «الناتو» (بما في ذلك دول الشمال والبلطيق الثماني)، لتعزيز أمن الجناحين الشمالي والغربي للحلف، بما في ذلك من خلال استثمارات كندا غير المسبوقة في الرادارات البعيدة المدى، وفي الغواصات، والطائرات، والقوات البرية. تعارض كندا بشدة فرض التعريفات الجمركية على غرينلاند، وتدعو إلى محادثات مركزة لتحقيق الأهداف المشتركة في الأمن والازدهار في القطب الشمالي.

وفي ما يتعلق بالتجارة المتعددة الأطراف، نحن نقود الجهود لبناء جسر بين الشراكة عبر المحيط الهادئ والاتحاد الأوروبي، مما سيوجد كتلة تجارية جديدة تضم ١,٥ مليار نسمة.

وفي مجال المعادن الحيوية، نحن في صدد تشكيل «أندية المشترين» المرتكزة في مجموعة السبع، حتى يتمكن العالم من تنويع مصادره بعيدا من الإمدادات المركزة. وفي ما يتعلق بالذكاء الاصطناعي، نحن نتعاون مع الديمقراطيات ذات التوجهات المماثلة لضمان أننا لن نضطر في النهاية للاختيار بين القوى المهيمنة والشركات التكنولوجية العملاقة (Hyper-scalers).

هذه ليست تعددية أطراف ساذجة، ولا هي اعتماد على مؤسساتهم. بل هي بناء تحالفات ناجحة ـ قضية بقضية، مع شركاء يتشاركون أرضية مشتركة كافية للعمل معا. وفي بعض الحالات، سيكون هؤلاء هم الغالبية العظمى من الدول. إن ما نقوم به هو إنشاء شبكة كثيفة من الروابط عبر التجارة والاستثمار والثقافة، التي يمكننا الاعتماد عليها لمواجهة التحديات والفرص المستقبلية.

يجب على القوى المتوسطة أن تعمل معا، لأننا إذا لم نكن على طاولة المفاوضات، فسنكون على قائمة الطعام.

لكنني أقول أيضا إن القوى العظمى يمكنها تحمل تكلفة المضي بمفردها في الوقت الحالي. فلديها حجم السوق، والقدرة العسكرية، والنفوذ لإملاء الشروط. أما القوى المتوسطة فلا تملك ذلك. ولكن عندما نتفاوض ثنائيا فقط مع قوة مهيمنة، فإننا نتفاوض من موقع ضعف. نحن نقبل بما يعرض علينا، ونتنافس بعضنا مع بعض لنكون الأكثر تكيفا.

هذه ليست سيادة. إنها «تمثيل» للسيادة مع قبول التبعية.

تنافس القوى العظمى والخيارات

في عالم يسوده تنافس القوى العظمى، أمام الدول التي تقع في المنتصف خياران: التنافس بعضها مع بعض لنيل الحظوة، أو الاتحاد لخلق مسار ثالث مؤثر.

لا ينبغي أن نسمح لصعود القوة الصلبة بأن يعمينا عن حقيقة أن قوة الشرعية والنزاهة والقواعد ستظل قوية، إذا اخترنا ممارستها معا ـ وهذا يعيدني إلى «هافيل». ماذا يعني للقوى المتوسطة أن تعيش الحقيقة؟

أولاً، يعني تسمية الواقع بمسمياته. توقفوا عن التذرع بالنظام الدولي القائم على القواعد وكأنه لا يزال يعمل كما يعلن عنه. سموا النظام باسمه الحقيقي: فترة من التنافس المتزايد بين القوى العظمى، حيث تسعى القوى الأكثر نفوذا وراء مصالحها، مستخدمة التكامل الاقتصادي كأداة للإكراه.

يعني العمل باتساق، وتطبيق المعايير نفسها على الحلفاء والمنافسين. عندما تنتقد القوى المتوسطة الترهيب الاقتصادي من اتجاه معين، لكنها تلتزم الصمت عندما يأتي من اتجاه آخر، فإننا بذلك نبقي اللافتة معلقة.

ويعني بناء ما ندعي الإيمان به. بدلا من انتظار استعادة النظام القديم، يجب إنشاء مؤسسات واتفاقيات تعمل كما هو موضح.

ويعني تقليل وسائل الضغط التي تمكن من الإكراه. ينبغي أن يكون بناء اقتصاد محلي قوي أولوية دائمة لكل حكومة. والتنويع دوليا ليس مجرد حكمة اقتصادية، بل هو أساس مادي لسياسة خارجية نزيهة، لأن الدول تكتسب الحق في اتخاذ مواقف مبدئية من خلال تقليل تعرضها لرد انتقامي. كندا تمتلك ما يريده العالم. نحن قوة عظمى في مجال الطاقة. نحن نمتلك احتياطيات هائلة من المعادن الحيوية. لدينا السكان الأكثر تعليما في العالم. صناديق التقاعد لدينا هي من بين أكبر المستثمرين وأكثرهم تطورا في العالم. بعبارة أخرى، لدينا رأس المال، والموهبة... ولدينا أيضا حكومة تتمتع بقدرة مالية هائلة للعمل بحسم.

ولدينا القيم التي يطمح إليها الكثيرون غيرنا.

ما هو المسار الذي تختاره كندا؟

كندا مجتمع تعددي ناجح. ساحتنا العامة صاخبة ومتنوعة وحرة. ولا يزال الكنديون ملتزمين بالاستدامة.

نحن شريك مستقر وموثوق به في عالم ليس كذلك على الإطلاق. شريك يبني ويقدر العلاقات على المدى الطويل.

ولدينا شيء آخر. لدينا إدراك لما يحدث وتصميم على التصرف وفقا لذلك.

نحن نفهم أن هذا التصدع يتطلب أكثر من مجرد التكيف. إنه يتطلب الصدق في شأن العالم كما هو.

سنقوم بإزالة اللافتة من النافذة.

النظام القديم لن يعود. ولا ينبغي لنا أن نحزن عليه. الحنين إلى الماضي ليس استراتيجيا.

لكننا نؤمن أنه من رحم هذا الكسر، يمكننا بناء شيء أكبر، وأفضل، وأقوى، وأكثر عدلا.

هذه هي مهمة القوى المتوسطة. الدول التي لديها الكثير لتخسره من عالم الحصون والكثير لتكسبه من التعاون الصادق.

الأقوياء لديهم قوتهم. ولكن نحن لدينا شيء أيضا. لدينا القدرة على التوقف عن التظاهر، وتسمية الواقع، وبناء قوتنا في الداخل والعمل معا.

هذا هو مسار كندا. نحن نختاره بوضوح وثقة، وهو طريق مفتوح على مصراعيه لأي دولة مستعدة لخوضه معنا.

٢٠٢٥/١٢/١٥

المصادر

Cinematic History

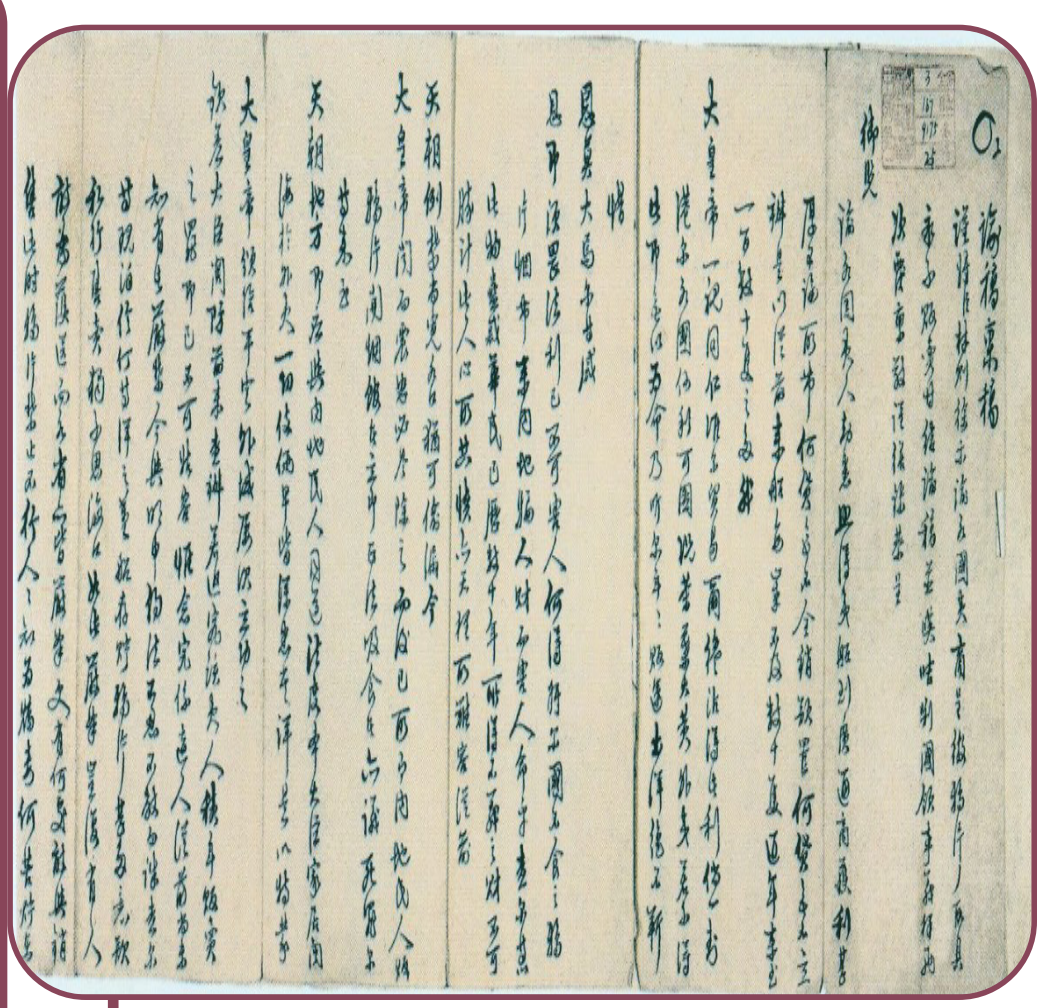

ما أشبه اليوم بالبارحة كيف أصبحت بريطانيا أكبر كارتل عالمي للمخدرات

تدمير كرات الافيون في الخندق

الإمبراطورية والأخلاق الفيكتورية: التمثيل والواقع

تُعدّ صورة الملكة فيكتوريا المعلقة في معرض الصور الوطني بلندن تحفةً دعائيةً. فهي تُظهر امرأةً ذات كرامةٍ عظيمةٍ وثباتٍ أخلاقيّ، مُتوشّحةً بأثواب الدولة الحريرية الثقيلة، وتحمل صولجان إمبراطوريةٍ مُستغِلّة. إنها جدة أوروبا، رمز حضارةٍ اعتقدت أنها تُنير أركان العالم المظلمة. إنها صورةٌ تُثير الاحترام. ولكن لو أزلتَ غطاء تلك اللوحة، ونظرتَ إلى السجلات المالية لحكومتها في عام ١٨٣٩، لرأيتَ صورةً أبشعَ وأكثرَ صدقًا، لن ترى سجلات ملكيةٍ مُتحضّرة، بل سترى دفاتر حسابات مؤسسةٍ إجرامية، لأنه تحت قشرة الأخلاق الفيكتورية، كانت الإمبراطورية البريطانية في منتصف القرن التاسع تُدير أكبرَ وأكثرَ شبكات تهريب المخدرات تطورًا في تاريخ البشرية. إن صورة السفن الحربية البريطانية وهي تُدمّر السواحل الصينية لحماية أسطولٍ من مُهرّبي المخدرات هي صورةٌ تمّ محوها بعنايةٍ من الذاكرة الغربية. لن تجدها في مناهج مدارس إيتون أو أكسفورد، وبالتأكيد لن تجدها في المسلسلات الدرامية التي تستحضر ذكريات العائلة المالكة. إنها ذكرى مؤلمة. بالنسبة للبريطانيين، تبدو وكأنها خطأ فادح في التقدير. أما بالنسبة للصينيين، فتبدو وكأنها اغتصاب عنيف لحضارة. لكن بالنسبة للرجال

الذين جلسوا في مجالس إدارة شركة الهند الشرقية، لم يكن قرار تحويل الإمبراطورية إلى كارتل مسألة حقد، بل كان مسألة بقاء. فآلة الإمبراطورية البريطانية كانت تعمل بالمال.

أزمة الشاي والفضة واختلال الميزان التجاري مع الصين

وبحلول ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كان الاقتصاد البريطاني قد استنفذ طاقته. لفهم الانهيار الأخلاقي للدولة البريطانية، لا بد من فهم الجوانب الاقتصادية المروعة للشاي. ففي القرن التاسع عشر، أدمن البريطانيون الشاي إدمانًا يكاد يكون مرضيًا. لم يكن الشاي مجرد مشروب، بل كان وقود الثورة الصناعية، والشيء الوحيد الذي جعل نوبات العمل التي تمتد لأربع عشرة ساعة في مصانع مانشستر المظلمة والمهيبة محتملة. كان الشاي بمثابة الغراء الاجتماعي الذي يربط الطبقة الأرستقراطية. اعتمدت الحكومة البريطانية على عائدات الضرائب من واردات الشاي لبناء سفنها الحربية ودفع رواتب موظفيها.

لكن كان هناك خلل كارثي في هذا النموذج الاقتصادي. لم يكن نبات الشاي ينمو إلا في الصين، ولم يكن إمبراطور تشينغ، الذي كان يجلس على عرش التنين في بكين، مهتمًا إطلاقًا بمنتجات الجزر البريطانية. لم يكن يريد صوفهم لأن شعبه كان يرتدي الحرير، ولم يكن يريد ساعاتهم الميكانيكية لأن فلكييه رسموا خرائط النجوم قبل قرون من تعلم البريطانيين القراءة. أوضح الإمبراطور للتجار البريطانيين اليائسين أنه لن يقبل سوى شكل واحد من أشكال الدفع مقابل أوراقه الثمينة، وهو الفضة. لعقود، كانت الإمبراطورية البريطانية تُستنزف ثرواتها حرفيًا في الشرق.

كانت السفن المحملة بملايين الأونصات من سبائك الفضة تبحر من لندن إلى كانتون، وتعود خالية إلا من صناديق النباتات المجففة التي تُغلى وتُستهلك. كان الخلل التجاري بمثابة نزيف حاد يُهدد بإفلاس بنك إنجلترا. كانت الاحتياطيات تتناقص، والعملة تزعزع استقرارها.

الأفيون كسياسة دولة وتنظيم الجريمة الاستعمارية

نظر مديرو شركة الهند الشرقية إلى ميزانياتهم، وأدركوا أنهم إن لم يجدوا سبيلًا لاستعادة تلك الفضة، ستنهار الإمبراطورية تحت وطأة ديونها. كانوا بحاجة إلى منتج لا يستطيع الصينيون رفضه، سلعة تتجاوز منطق السوق وتستغل منطقًا خفيًا في بيولوجيا الإنسان. وجدوا الأفيون. لم يُترك إنتاج هذا السم لأيدي مجرمين عشوائيين، بل كان مُنظمًا بكفاءة بيروقراطية باردة تُضاهي كفاءة الدوائر الحكومية. في سهول البنغال الخصبة، أسست الإدارة الاستعمارية البريطانية احتكارًا كان ليثير حسد أي تاجر مخدرات معاصر. أجبروا عشرات الآلاف من المزارعين الهنود على حرث محاصيلهم الغذائية وزراعة حقول شاسعة من الخشخاش. لدينا أوصاف لمصانع المعالجة في باتنا (عظيم آباد الهندية، عاصمة إقليم بيهار) وغازيبور (مدينة وسط بنغلاديش) تُشبه مشاهد من رواية ديستوبية (أدب المدينة الفاسدة). كانت بمثابة معابد صناعية للمخدرات.

في القاعة الكبرى لمصنع غازيبور، وصف الزوار رؤية آلاف الجرار الفخارية المكدسة حتى السقف، كل منها مملوء بمعجون الأفيون الأسود الكثيف. وصفوا الرائحة، رائحة حلوة نفاذة تُثير الغثيان، تُخيم على المنطقة بأكملها. وصفوا جيوش العمال المحليين الذين كانوا يقضون أيامهم غارقين في المخدرات، يقلبونها في أحواض ضخمة لضمان فعاليتها. كانت هذه هي عبقرية النظام البريطاني. لقد طبقوا معايير الثورة الصناعية على إنتاج مخدر غير مشروع.

قاموا بتوحيد حجم الكرات. كانوا يختمون كل قرص من الأفيون بالختم الرسمي لشركة الهند الشرقية، تمامًا كما يختمون سبيكة ذهب أو صندوق بنادق. كان منتجًا للدولة. لكن الرجل في لندن واجه مشكلة قانونية.

تفكك المجتمع الصيني والمواجهة الإمبراطورية

كان بيع الأفيون محظورًا تمامًا في الصين، وكانت عقوبة الاتجار به الإعدام خنقًا. لم يكن من الممكن للحكومة البريطانية أن تُرى وهي تنتهك قوانين دولة ذات سيادة بشكل مباشر. لذلك، ابتكروا نظامًا للإنكار المعقول، كان خبيثًا بقدر ما كان فعالًا. لم تُبحر شركة الهند الشرقية بالسفن إلى الصين، بل باعت المخدرات في مزادات علنية في كلكتا لتجار من القطاع الخاص. هؤلاء الرجال هم المهربون.
كانوا هم المهربون. كانوا رجالاً مثل ويليام جاردين، الطبيب الاسكتلندي الذي تحول إلى تاجر، والذي كان يتمتع بعقل لامع وانعدام تام للبوصلة الأخلاقية.

اشترى جاردين وشركاؤه الأفيون الحكومي، وحملوه على سفن شراعية سريعة مُسلحة تسليحاً كثيفاً بالمدافع، وأبحروا بها إلى دلتا نهر اللؤلؤ. هناك، رسوا قبالة سواحل جزيرة لينتون النائية وحولوا سفنهم إلى مستودعات عائمة. رشوا المسؤولين المحليين، وسلحوا العصابات المحلية، وأنشأوا شبكة توزيع نقلت السم من على متن السفن البريطانية إلى عروق الشعب الصيني. وعادت الفضة تتدفق. نجحت الخطة تماماً. استعاد مهربو الأفيون الفضة التي دفعتها بريطانيا مقابل الشاي،

ثم أعادوها إلى النظام المصرفي البريطاني. تم إصلاح العجز التجاري، وتم إنقاذ الإمبراطورية. لكن الثمن كان اغتيالاً بطيئاً للمجتمع الصيني.

بحلول عام ١٨٣٨، كان البريطانيون يهربون ٤٠ ألف صندوق من الأفيون سنوياً إلى الصين. هذا يعادل تقريبًا خمسة ملايين رطل من معجون مخدر نقي. كان الأثر كارثيًا.

لدينا تقارير من مسؤولين صينيين في ذلك الوقت تصف قرى بأكملها توقف فيها الرجال عن العمل لأنهم كانوا يقضون أيامهم منكبين على ألواح خشبية يستنشقون الدخان. كان الجيش يتآكل من الداخل لأن الجنود كانوا يبيعون بنادقهم لشراء المخدر. كانت البيروقراطية مشلولة لأن القضاة كانوا تحت تأثير المخدرات. كانت الفضة، التي كانت شريان الحياة للاقتصاد الصيني، تتلاشى، مما تسبب في تضخم وفقر أدى إلى مجاعات واضطرابات.

شاهد الإمبراطور داغوانغ من أسرة تشينغ إمبراطوريته وهي تنهار، ليس بسبب غزو عسكري، بل بسبب غزو الإدمان. أدرك أنه يواجه تهديدًا وجوديًا. إذا لم يتم إيقاف تدفق الأفيون، فإن الصين ستتوقف عن الوجود كدولة فعالة. في لحظة من العزم اليائس، لجأ الإمبراطور إلى أحد الرجال القلائل في بلاطه الذين لا يمكن شراؤهم. عيّن لين زيكسو، وهو عالم وشاعر من مقاطعة فوجيان، مفوضًا إمبراطوريًا له. «لين زيكسو» شخصية تستحق أن تُخلّد في التاريخ كشهرة نيلسون أو نابليون. عُرف باسم «لين السماء الزرقاء» لنزاهته الصافية كالسماء. منحه الإمبراطور سيفًا وأمره باستئصال لعنة الأفيون من الصين. وصل لين زيكسو إلى كانتون في مارس ١٨٣٩، ولم يأتِ للتفاوض، بل للقضاء على الكارتل. شنّ حملة قمعية مذهلة في سرعتها وشدتها، فاعتقل آلاف التجار الصينيين وزجّ بهم في السجون، وجمع عشرات الآلاف من المدمنين وأجبرهم على دخول مراكز إعادة التأهيل حيث خُيّروا بين الإقلاع عن الإدمان أو الموت. لكن «لين» أدرك أن اعتقال الضحايا لا يكفي، بل عليه قطع رأس الأفعى، وملاحقة البريطانيين. فوجه إنذارًا نهائيًا للتجار الأجانب المقيمين في حيّ المصانع الثلاثة عشر الثري. طالبهم بتسليم كل ما بحوزتهم من أفيون، وتوقيع تعهد بعدم تهريب المخدر مجدداً. وعندما حاول التجار البريطانيون مماطلته، أظهر لهم «لين زيسكو» وجهاً مرعباً لسلطة ذات سيادة تم تجاوز حدودها.

نشر قواته لتطويق الحي الأجنبي، وأقام متاريس في الشوارع، وقطع إمدادات الطعام والماء. أمر رجاله بقرع الطبول والدفوف طوال الليل، مانعًا التجار من النوم. حوّل مركز هم التجاري الفخم إلى سجن. أدرك الكابتن تشارلز إليوت، المحاصر داخل مركز التجارة البريطاني، أنه خسر. خوفًا على حياة مواطنيه، أمر إليوت التجار بتسليم بضائعهم، ووعدهم بأن الحكومة البريطانية، والملكة نفسها، ستعوضهم عن خسائرهم. كانت تلك لحظة انتصار لـ«لين زيكسو»، إذ استولى على أكثر من ٢٠ ألف صندوق من الأفيون البريطاني، وهو جبل من المخدرات بقيمة ملايين الدولارات في السوق السوداء، تكفي لإبقاء سكان الصين بأكملها في حالة سُكر لأشهر.

لـم يقم «لين» ببيعها، ولم يُعد اسـتخدامها لأي غرض آخر، بل أمر بحفر ثلاثة خنادق ضخمة على الشاطئ، وأمر بسحق كرات الأفيـون وإلقائها في الخنادق. ثم أضاف الجير والملح والماء. تسـببِ التفاعل الكيميائي في غليان المزيج وتصاعد فقاعات، محولًا المخدر الثمين إلى طين سـام عديم الفائدة. ثم عند انحسـار المد، فتح بوابات المنجم وغسل السم في البحر. اسـتغرق الأمر ٢٣ يومًا لتدميره بالكامـل. بينما كان العمال يقلبون الحفر المغلية، جلس «لين زيكسـو» في خيمته وكتب رسـالة إلى الملكة فيكتوريا. إنها وثيقة تُعد بمثابة شـاهد قبر أخلاقي للقرن التاسـع عشـر. لـم يكتب إليهـا كهمجي لملكة متحضرة، بل كرجل ذي ضمير لامرأة كان يأمل أن تشاركه قيمه.

سـألها سـؤالًا لا يزال صـداه يتردد عـبر التاريخ. كتب: «أُخـبرت أن تدخـين الأفيون ممنوع منعًـا باتًا في بلدك. في ظل هذه الظروف، كيف يمكنكِ السـماح له بالانتشار لتسميم أراضٍ أخرى؟»

ناشدها إنسانيتها. افترض أنها ببساطة لا تعلم ما يفعله رعاياها باسمها. افترض أنه لو علمت ملكة إنجلترا بالحقيقة، لأوقفت الأمـر، لكن الرسـالة لم تُجب قـط. لا نعلم إن كانـت الملكة فيكتوريـا قد اطلعت عليها. يُرجّح أنها تراكم عليها الغبار في صنـدوق بريد بـوزارة الخارجية. لكن حتى لـو قرأتها، فمن غير المرجح أنها كانت سـتغير مجرى التاريخ. ففي لندن، لم يُنظر إلى إتلاف الأفيون على أنه عملٌ قانونيٌّ مُبرَّر، بل على أنه سـرقةٌ لا تُطاق للممتلكات البريطانية. عندما وصل الخبر إلى مدينة لندن، لم يخجل تجار المخدرات، بل شـنّوا هجومًا مضادًا. سـافر ويليام جاردين، كبير المهربين، إلى لندن وبدأ حملـة ضغطٍ تجعـل جماعات الضغط في الشـركات الحديثة تبدو هاوية. والتقى بوزير الخارجية، اللورد بالمرستون. فتح خرائطه للسـاحل الصيني، وأشـار إلـى الموانئ العميقة والمدن العاجزة عن الدفاع عن نفسـها. زعم أن الصينيين قد أهانوا العلم البريطاني، وأن تدمير الأفيون يُعد انتهاكًا لمبادئ التجـارة الحرة المقدسـة. أخبر الحكومـة أن الجيش الصيني ضعيف، وأنهم مسلحون بالأقواس والسهام والبنادق القديمة. ووعد بأن أسـطولًا صغيرًا من السـفن الحربية الحديثة قادر علـى إخضاع الإمبراطوريـة الصينية في غضون أسـابيع. كانت الحكومة البريطانية مفلسـة، بحاجة إلى ضريبة الشاي والفضـة، والآن عليهـا فاتـورة بقيمة ٢٠ مليـون دولار من تجارهـا مقابـل المخدرات المدمـرة. كان عليهـا أن تختار: إمـا قبول الخسـارة واحتـرام القوانين الصينيـة، أو خوض الحـرب لإجبـار الصينيين على دفع ثمن السـم الذي دمروا. اختارت الحرب. لم يكن الأسـطول الـذي أبحر من الهند إلى الصيـن صيف عـام ١٨٤٠ مجرد حملة عسـكرية، بل كان تجسـيدًا ماديًا للثورة الصناعية، مُسـخّرًا لأغراض الجريمة المنظمة. كانت سفينة تُدعى «نيميسيس» على رأس الأسطول البريطاني. لقد كانت نذير شـؤم للمستقبل. كانت «نيميسيس» أول سفينة حربية حديدية عابرة للمحيطات في التاريخ. كانت تعمـل بمحركات بخارية سـمحت لها بالإبحـار عكس اتجاه الرياح وفي الأنهار الضحلة التي لم تسـتطع السـفن الخشبية الضخمة الوصول إليها. بالنسـبة للمدافعيـن الصينيين الذين شـاهدوها تقتـرب من السـاحل، لا بد أنها بـدت كوحش من كابوس. كان أسطولهم يتألف من سفن شراعية خشبية مسلحة بمدافـع لم تتغير بشـكل ملحوظ منذ عهد أسـرة مينغ. لم يكن الصـدام بيـن هاتين القوتيـن معركة، بـل كان إعدامًا. كانت الاسـتراتيجية البريطانية بسـيطة وقاسـية. لم يحاولوا غزو المناطق الداخلية الشاسـعة من الصين، بل خنقوها ببسـاطة. أبحـروا علـى طول السـاحل، وقصفـوا الحصـون واحتلوا الموانئ الرئيسـية. استولوا على سـفن الضرائب التي كانت تحمل جزية الحبـوب إلى بكين، مهددين العاصمة بالمجاعة. كان الجنرالات الصينيون رجالًا شـجعانًا أمضوا حياتهم في دراسـة فنون الحرب، لكنهم كانوا يقاتلون عدوًا لم يستطيعوا فهمـه. ارتدت قذائف مدافعهـم دون أن تُحدث أي ضرر عن ثقوب سـفينة نيميسيس الحديدية. اشـتعلت أساطيلهم الخشبية بنيران صواريخ الكونجر التي انطلقت في السـماء كالتنانين. لدينـا روايات من ضباط بريطانيين شـاهدوا المذبحة بمزيج مـن الرهبة والشـفقة. يصفون الجنـود الصينيين وهم يثبتون في مواقعهم وسـط وابل مـن قذائف العنب، يطلقون النار من بنادقهم حتى سـقطوا قتلى في أماكنهم. لقـد كان صراعًا بين العالم القروسطي والعالم الحديث.

لم يكن للعـالم الحديث رحمـة. فبينما كانـت القوات البريطانية تتقدم شـمالًا، مخلفةً وراءهـا مدنًا محترقة وجثثًا ممزقة، أصيب الإمبراطور في بكين بصدمة شديدة. لم يسـتوعب كيف استطاعت حفنة من البرابرة من جزيرة صغيرة على الجانـب الآخر من العـالم أن تُفكك دفاعات المملكة الوسـطى بهذه السـهولة. لكـن البريطانيين لم يكونوا مهتمين بحـيرة الإمبراطور، بل كانوا مهتمين باستسلامه.

الحرب، المعاهدات غير المتكافئة، وإرث الأفيون

وبحلول صيف عام ١٨٤٢، أبحر الأسطول البريطاني في نهر اليانغتسي (نهر تشانغ جيانغ) ووجه مدافعه نحو مدينة نانجينغ القديمة. وهددوا بحرق المدينة عن بكرة أبيها إن لم يستسلم الإمبراطور. وأمام خطر إبادة شعبه، استسلم الإمبراطور. وفي ٢٩ أغسطس ١٨٤٢، صعد المسؤولون الصينيون على متن السفينة البريطانية الرئيسية، إتش إم إس كورنواليس. وهناك، تحت نيران المدافع البريطانية، وقعوا معاهدة «نانك كينغ». تُعرف معاهدة «نانك كينغ» في الصين بأنها أولى المعاهدات غير المتكافئة، وهي وثيقة إذلال عميق. فرض المنتصرون الشروط، وكان الهدف منها تجريد الصين من سيادتها الاقتصادية. طالب البريطانيون الصين بدفع تعويض قدره ٢١ مليون دولار فضي. خُصص ستة ملايين دولار منها تحديدًا لدفع ثمن الأفيون الذي أتلفه « لين زيكسو». لا يزال هذا الأمر يُثير الدهشة.

أجبرت الحكومة البريطانية الحكومة الصينية على دفع ثمن المخدرات التي هُرّبت إلى بلادها بالمخالفة لقوانينها. لقد كانت عملية ابتزاز لحماية المجرمين، مُجسّدة على نطاق واسع في سماء الدبلوماسية الدولية. لكن المال لم يكن سوى جزء من الثمن. فقد أجبرت المعاهدة الصين على فتح خمسة موانئ تجارية، حيث يُمكن للتجار البريطانيين الإقامة والتجارة دون الخضوع للقوانين الصينية. والأهم من ذلك، أنها أجبرت الإمبراطور على تخصيص جزيرة صخرية قبالة الساحل الجنوبي للتاج البريطاني إلى الأبد. كانت تلك الجزيرة هي «هونغ كونغ». كان وزير الخارجية البريطاني، اللورد بالمرستون، غاضبًا في البداية من «هونغ كونغ». وصفها بأنها صخرة جرداء لا يوجد عليها منزل. كان يُريد منطقة إنتاجية رئيسية، لا جزيرة مهجورة يسكنها الصيادون والقراصنة. لكن مهربي المخدرات كانوا يعرفون الحقيقة.

كانوا يعلمون أن «هونغ كونغ» هي الجائزة الكبرى. لقد كانت الملاذ الآمن الأمثل. تحت حماية العلم البريطاني، تمكن تجار الأفيون من بناء مستودعاتهم وإرساء سفنهم دون خوف من الشرطة الصينية. أصبحت «هونغ كونغ» المقر العملياتي للعصابة، والمركز اللوجستي الذي تدفق منه السم إلى القارة. في السنوات التي تلت المعاهدة، لم تستأنف تجارة الأفيون فحسب، بل ازدهرت بشكل هائل. كثفت الإدارة البريطانية في الهند الإنتاج لتلبية طلب الصين المنهكة. بحلول ثمانينيات القرن التاسع عشر، كان البريطانيون يبيعون أكثر من ٦٠٠٠ طن من الأفيون للصين سنويًا. أصبحت عائدات هذه التجارة الركيزة المالية للراج البريطاني في الهند، حيث مولت السكك الحديدية، ورواتب الخدمة المدنية، والبحرية التي كانت تجوب محيطات العالم.

لقد كان «السلام البريطاني»، العصر الذهبي للسلام والازدهار البريطاني، قائمًا على إدمان ملايين الفلاحين الصينيين. كان الأثر النفسي على الصين أشد فتكًا من التكلفة الاقتصادية، فقد حطمت حرب الأفيون النظرة الصينية للعالم.

لآلاف السنين، اعتبروا أنفسهم مركز العالم، وقمة الحضارة. والآن، أذلّتهم أمةٌ من مروّجي المخدرات. هذه الصدمة ولّدت ما يُعرف اليوم بقرن الإذلال. كانت فترة فوضى داخلية، وحرب أهلية، وهيمنة أجنبية استمرت حتى منتصف القرن العشرين. إنها الندبة التي تُعرّف الصين الحديثة. عندما يتحدث قادة الحزب الشيوعي الصيني اليوم عن النهضة الوطنية أو يحذرون من التدخل الأجنبي، فإنهم لا يتحدثون بلغة سياسية مجردة. إنهم يتذكرون حفر البشر المُدخّنة وحرق القصر الصيفي. إنهم يتذكرون الوقت الذي طرق فيه الغرب أبوابهم، لا بيد مفتوحة، بل بقبضة مُغلقة مليئة بالسم. ولكن ماذا عن الرجال الذين دبروا هذه الجريمة؟ ماذا حدث لـ«ويليام جاردين» (١٧٨٤-١٨٤٣)، ذلك العجوز العنيد؟ هل نال جزاءه على البؤس الذي تربّح منه؟ على العكس، عاد إلى لندن بطلاً. وانتُخب لعضوية البرلمان.

أصبح شريكه، «جيمس ماث»، بارونًا وأحد أكبر ملاك الأراضي في بريطانيا. مات «جاردين» لكن الشركة لم تختفِ. بل تطورت. انتقلت من تجارة الأفيون إلى الشحن، ثم إلى العقارات، وصولاً إلى التمويل. وأصبحت واحدة من بيوت التجارة الكبرى التي بنت هونغ كونغ الحديثة. إذا تجولت في الحي المالي لهونغ كونغ اليوم، سترى إرث تجارة المخدرات محفورًا في أفق المدينة. سترى مبنى جاردين هاوس بنوافذه الدائرية المميزة المطلة على الميناء الذي كان يعجّ بسفن الأفيون. سترى شوارع تحمل أسماء المهربين. إن الازدهار الباهر لإحدى أهم العواصم المالية في العالم مبني على أساس وضعته عصابات المخدرات.

ثمة مفارقة غريبة ومؤلمة في إرث حروب الأفيون. فقد انقلبت الإمبراطورية البريطانية في نهاية المطاف على هذه التجارة. وبحلول أوائل القرن العشرين، اكتسبت الحملة الأخلاقية ضد الأفيون، التي قادتها جماعات دينية في إنجلترا، قوة سياسية كافية لإجبار الحكومة على وقف الصادرات. لكنهم لم يوقفوا ذلك لأنهم استيقظ ضميرهم فجأة، بل لأنه لم يعد ضروريًا. لقد وجدت الإمبراطورية طرقًا أخرى لكسب المال، لكن الضرر كان قد وقع. أما أفق هونغ كونغ فيقف شاهدًا على خيانة حضارة. تُثبت حرب الأفيون أن الخط الفاصل بين حكومة شرعية ومنظمة إجرامية غالبًا ما يكون مجرد مسألة قوة بحرية أكبر.

تُعلّمنا هذه القصة أن التجارة الحرة مفهوم نبيل، لكن يمكن تحريفه ليصبح سلاحًا للاستغلال. في النهاية، تُعدّ قصة احتكار الملكة بمثابة تحذير. نميل إلى اعتبار التاريخ مسيرة ثابتة نحو التقدم، نحو مزيد من الحقوق والأخلاق. لكن القرن التاسع عشر يُظهر لنا أن التقدم غالبًا ما يُموّل بمعاناة المهمشين. جلست الملكة فيكتوريا على عرشها لمدة ٦٣ عامًا، رمزًا للفضيلة والنعمة. لكن جواهر تاجها صُقلت بفضة مُستنزفة من إمبراطورية مُحتضرة، وشربت الشاي في فنجانها مُشبعًا بمأساة أمة أُجبرت على الركوع. لم تختفِ أشباح أوكار الأفيون، بل لا تزال تُخيّم على الشكوك التي لا تزال تُقسّم الشرق عن الغرب.

تُذكّرنا هذه الأشباح بأن السيادة ليست حقًا مُطلقًا، بل هي امتياز يُمكن لأي شخص أن ينتزعه منه، حتى لو كان يملك سفينة حربية ومنتجًا يُسوّقه. وبمجرد أن تُجبر أمة على ابتلاع سمّك، لا يُمكنك أبدًا أن تتوقع منها أن تثق بك عندما تُقدّم لها علاجًا.